مطبوعات مكتبة مصر

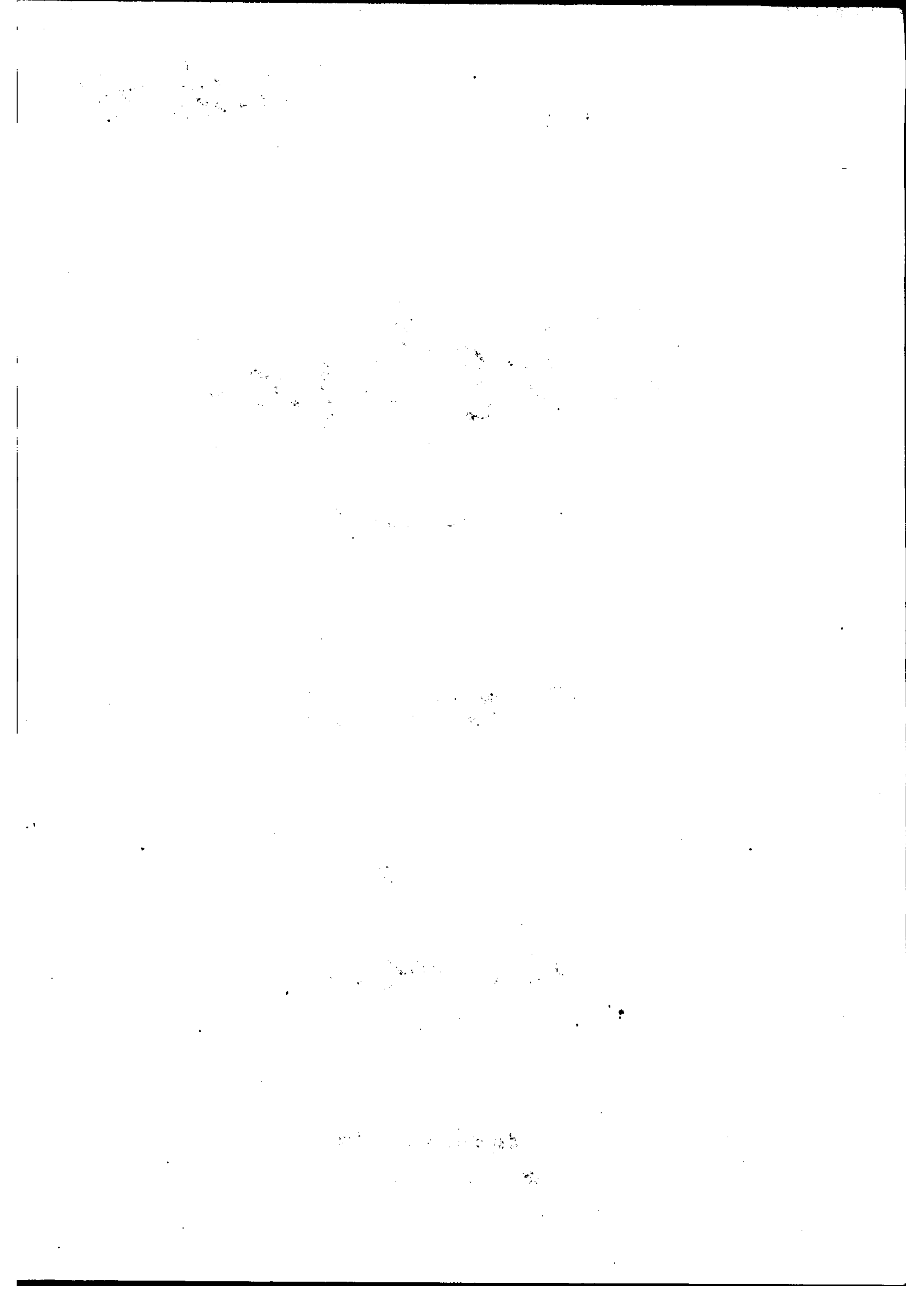
الدموع لا تمسح الأحزان

(قصص قصيرة)

طه وادي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



إسماعيل يأكل الخس

فتح عينيه بصعوبة على طاقة يوحى ضوؤها الهامس بميلاد النهار . بدت حجرة النوم — حيث ينام هو وزوجته على فرن فيها — مثل ترعة راكدة . تحسس آثار الحصيرة على جسده. جذب زوجته قائلا :

— امرأة يا أم السعد قومى .

لم ترد .. قرصها فى كتفها : قومى ياولية جاءتك سخونة .

تحاول أن تبعد النوم عن عينيها . تلم أطراف جلباب باهت على ساق جافة . قالت فى دلال خشن .

— يارجل وحد الله .. وقل يا فتاح يا عليم .

ثلاثة أشياء اعتاد إسماعيل .. صارت كل عالمه : زوجة يعاشرها منذ سبع سنوات دون إنجاب ، لا يعرف السبب ولا يفكر فى السؤال ، حمار ورثه عن أبيه — كما ورث حجرة الفرن ، فأس ذات كف عريضة . دورة حياة إسماعيل مثل مسيرة الشمس .. لا تجديد .. لا سأم ، أول اليوم مع الفأس ، فهو يعمل كل يوم .. حتى فى العيد : فى العصر يأخذ الحمار يرعى من حشائش جسور

الحقول أو شط الترعة . حمار إسماعيل يرضى بالقليل ، ليس مثل حمار على أبو عطية .. صاحب العربة الكاروه التى يكتريها البقالـون والتجار ، لذلك يشترى له الفول والكُسب .. ! الليل يضيع كله مع أم السعد .. غير أنها أرض مالحة .. قسمة ونصيب .. كله مكتوب على الجبين .. ليتنى أعرف القراءة حتى أقرأ المكتوب .. !

ركب الحمار قبل طلوع الشمس .. وقد وضع ساقيه فى ناحية واحدة . أمسك يد الفأس كما الأرغول .. أخذ يغنى :

أقوم من النوم أقـول يـا رب عـدّلها

بلد حبيبى قصاد عينى ازاى أعدى لها

ـ على فين ياعم إسماعيل ؟

ـ سراية العمدة .. يا مقدس خليل .

ـ العمدة مرة واحدة .

لم يستطع أن يقول إنه ذاهب لتنظيف الزريبة ، ماذا تفرق سراية العمدة عن زريبته .. كل واحد .. أى والله .. كله تبع العمدة. سامحك الله ياباشا يا أبو عمدتنا ، لِمَ جعلت السراية بجوار البرامون وأنت من بدواى ؟ .. له فى ذلك حِكم .. !

ـ صباح الخير .. ياعبد العاطى .

عبد العاطى خفير السراية ولد أعور لكنه عفريت ، يركب وابور الحرث ويجعله ينط على الأرض نطا ، يحرك المنافلة فى الماكينة فتنزل المياه مثل السيل ، يلعب فى الدينامو فتملأ الكهرباء السراية والحديقة والطريق .

ـــ نهارك سعيد .. انزل بقى .. عيب تمشى على طريق السراية وأنت راكب .

لعن عبد العاطى فى سره ألف مرة .. لم يستطع أن يتأكد .. كانت .. ماذا .. هناك .. من .. ؟ . من الإنس أم الجن ؟ .. أعوذ برب الفلق .. رآه تائها فسأله :

ـــ مالك ؟

أشار إلى شبح بين شجرات الحديقة . نظر عبد العاطى بعين صقر، وكشر : غور يا بعيد .. الست مرفت تلعب رياضة .

ـــ ماتقول ياولد .. نور كلامك ؟

ـــ غور والسلام .

عزت على إسماعيل أبو إسماعيل نفسه ، كان فرحاً ، لأنه سيعمل فى سراية العمدة . أيام الباشا كان المشى هنا مُحرَّمًا مثل الإفطار فى شهر الصوم . الدنيا تتغير .. ربك يعدلها .. ياعبد العاطى . أخذ يبحث

عن قميص قديم لزوجته وضع فيه طعامه . ألف رحمة تنزل عليك ياجدى إسماعيل لم هاجرت من الإسماعيلية إلى بدواى ؟ سألت عن الإسماعيلية موطن جدى .. واحد قال إنها عند الشلال قرب بلد تسمى أسوان .. آخر قال إنها عند البحيرة .. بجوار الإسكندرية .. يا شيخ عمران محتار دلنى الله يهديك ؟

ـــ يا ابنى أصلك وقتك .

تلميذ قال : الإسماعيلية بناها الخديوى إسماعيل على قناة السويس .. هذا ما تعلمناه فى المدرسة .

مستحيل أن يكون جدى وأبى كذابين .. المدارس تزيف التاريخ .. الإسماعيلية بلد جدى إسماعيل ألف رحمة ونور عليه .

ـــ أنت يارجل .

أفاق على صوت يناديه .. بوجه مَن اصطبحت اليوم .. اللهم اجعله خيرًا .. لم يستطع أن يفهم .. من هذه الطالعة ؟ .. لحظة قشدة .. مالها تبدو مثل الغاب الرومى .. حجم واحد من أعلى ومن أسفل .. من خلف ومن قدام .. ياللفضيحة تلبس سروالا أبيض .. حتى الحذاء أبيض .. كله أبيض فى أبيض . الشيخ عمران قال فى خطبة الجمعة ملابس أهل الجنة بيضاء .. هذه بلاشك حورية .

قطع عبد العاطى الزفت شطحاته .

ــ أيوه ياست مرفت أمرك .

ــ لا أناديك .. أنادى هذا البنى آدم الذى يقف صامتاً مثل الحمار . كيف يكلم الحمار الحورية .. كان بطىء الفكر والحركة والكلام .

سؤال يحيره .. هذه امرأة مثل أم السعد .. ماذا يصنع بها من يتزوجها .. لا .. هذه شيء آخر . عيونها ورق برسيم . وجهها قمر أربعة عشر .. شعرها ــ ياخبر أسود .. مقصوص ، لكن من يقص شعر الحريم .. هل لها حلاق مثل الولد يمانى ؟

ــ لم لا تنطق يارجل ؟

ــ أنا .. أنا ياست هانم .

ــ اسمك . ؟

ــ خدامك .. ومحسوبك .

ــ أسمك .. يابنى آدم .. ؟

ــ إسماعيل .. يا ست هانم بك .

ضحكت .. كما الورد .

ــ أتعمل عندنا ؟

ــ أول يوم .. ياست هانم .

أراد عبد العاطى أن يزعق فيه ، لكنه خاف فقال بأدب :

ــ اسمع كلام الست .

كانت تتعجب من ذلك القصير الممتلىء ، يلبس جلباباً أسود .. طاقية فاحمة .. العجيب فيه ساقاه .. يسيران إلى الداخل .. بدا منظرة مثيرًا للسخرية والشفقة .. مثل غريق يسوقه الحظ إلى البحر الأزرق كان . عيب البحر الأزرق ليس فى أنه عميق .. إنما تعيش فيه جنيات .. الجنية تريد أن تؤاخى واحدًا من البشربأى طريقة ، تأخذه إلى الأعماق يعيش فى قصر ، طوبة من ذهب وأخرى من فضة ، إذا رضيت عنه يعود بعد عمر طويل وقد عرف السر .

ــ صحتك جيدة .

لم يدر ماذا يقول .

ــ عليك أن تقطع شجرتين كافور .. أريد عمل أرجوحة .. تزورنى غدًا صديقاتى .. سامية وصافى ومنى .. و .. قلت لهن أبى عمدة .. عندنا كل شىء .. لكن لاتوجد أرجوحة .

مثل الأطرش فى الزفة كان .

ــ أكيد .. فهمت ياعبد العاطى .. فهمه .

نظرت ناحيته وهى تستعد للجرى :

ــ لو عملت هذا أعطيك .. تفاحة .

وطارت حمامة بيضاء ..

ــ ما هو التفاح ياعبد العاطى ؟

ــ مثل الكمثرى .

ــ لا أعرفها .

ــ مثل الخوخ ..

ــ تقول كلاما لا أفهمه .

ــ التفاح مثل الخس .

صار حلمه أن يشترى خسة ليعرف طعم التفاح . اليوم يأخذ قرشا من الأجرة .. سيقول لأم السعد إنه ضاع . فى المساء سأل كل البائعين،لكنه لم يجده فى القرية . فكرة .. الولد مسعد يذهب كل صباح إلى المنصورة . اختلط الكون فى رأسه .. أم السعد .. مرفت .. العمدة .. عبد العاطى .. الحمار .. الفأس .. شجر الكافور .. السراية .. الزريبة .. البحر الأزرق .. الجنية .. التفاح .. كل هذا لا يهم ، سيحضر مسعد الخسة ولا حاجة لتفاحتك،ياست مرفت لِمَ تقولين كلاما لا تقدرين عليه .. !؟

مع المساء .. عاد مسعد .. أخذ الخسة .. جرى نحو الدار .. وما إن وصل حتى صاح فيها وهى ترقع جلبابه : أم السعد .. تعالى نأكل .. سنأكل التفاح .. تفاح يابلد .. !

نظرت فى بطء ودهشة .. عيناها تقولان فى صمت .. لعنك الله يا عبد العاطى.لقد تغير إسماعيل منذ عرف طريق سراية العمدة .

نوفمبر ١٩٨٠

أم السعد .. تبيع البيض

ــ يا رجل أنت متعب .. لا تسمع الكلام .. ولا تريد أن تفهمنى .. !

ــ لا تكونى عنيدة .. التى تحب رجلا لابد أن تسمع كلامه .

ــ ياميلة بختى معك .. !

ــ اخرسى ياغشيمة .

انهارت دموع ساخنة على وجه أسمر جاف . تحير إسماعيل ماذا يقول لأم السعد .. أراد أن يُضحك زوجته فأبكاها . امرأة عنيدة .. غاوية نكد .. تعرف البئر وغطاءها . كيف يمكن أن يشترى لها ثوبا من الباتستة واليد قصيرة ؟ أخذ يداعبها بغشم متعمد كى تنسى ، لكن الجسد العارى لا ينسى قسوة البرد .

قطع حدة الصمت طَرق مألوف كل صباح .. دخل الفقيه الكفيف .. الشيخ باز :

يعرف طريقه إلى المصطبة .. تربّع .. تجشّأ .. افتعل السعال، حتى يسلك حنجرته استعدادا للقراءة .

ــ كيف حالك ياشيخ باز ؟

ــ تعبان ياعم إسماعيل من السهر فى المآتم .

ــ أيوه ياعم .. كل الناس تحزن للموت إلا أنت .

ــ يارجل ربّك كبير .. يرزق من يشاء بغير حساب .

أم السعد بدت الحياة أمامها كما تراها عين ذلك الأعمى المتربع على المصطبة . إسماعيل فقير مريض .. ما تمنت أن يكون يوما رجلها .. أيام الصبا الأم ترسلها تجمع شجيرات الملوخية لطعامهم .. والحشائش لأرانبهم .. تذهب دائما إلى حقل شيخ البلد ، عنده عشرة فدادين قطعة واحدة . ولده محمود شاب قوى كان يتركها تجمع ما تشاء من الملوخية .. والحشائش . أحيانا يعطيها كوزا من الذرة .. وبعض الفول الأخضر .. وبعض البامية الخضراء . حين يضمها تحس نشوة عارمة تهزها من الداخل ، النار إذا لم تُطفأ تشعل فرن العذاب يا قلبى .

أمسك محمود بكوز الذرة .. وأخذ يقتل الانتظار بالغناء .

دخلت جوّ الدرّه   طرف الدره عينى
أبكى على الحب   ولاّ أبكى على عينى
أبكى على الحب   لكن سدّ يا عينى

حين تشوى كوز الذرة تحس أن فى داخلها نارا أقوى من نار

الحطب . كم تخيلت الشاطر حسن زوجا يجعل منها ست الستات .. ويشترى لها حاجات وحاجات ـ ياطالع الشجرة .. هات لى معاك بقرة .. تحلب وتسقينى بالمعلقة الصينى .

ـــ الغداء .. تأخرت ياولية .

نظرت إليه فى حيرة .. أفزعها ما بين الحلم والواقع . نقلت بصرها بين الرجل والحمار . بين ظلام الحجرة وضوء النهار ، يشع من طاقة صغيرة فى الجدار .

ـــ لا تتأخرى فى السوق يا امرأة .. بيعى البيض .. واشترى ما تريدين ،واحتفظى ببعض القروش حتى نطحن الذرة .

سحب الحمار.. خرج فى صمت.. شجرة توت عقيمة ..عوده غير متناسق .. هدَّت الفأس حيله .

بين حقول البرسيم والقمح والقصب والفول سارت وحدها .. شمس برمهات ساطعة .. سلة البيض على رأسها .. الطريق إلى السوق مزدحم .. وحدها مصرة تمشى .. كانت تحلم فى ضوء الشمس .. تمنت أن تكون مثل الحاجة صديقة زوجة شيخ البلد ، لها دار كبيرة وأولاد كثيرون .. البعض يعمل فى الحقل والآخرون يتعلمون فى مدارس البندر .. زوجها رجل مهيب ، تمر دورية

الخفراء أمام بيته كل ليلة .. وهو يأمر وينهى مثل المأمور .

ــ لمَ لا تعملين عندنا على طول يا أم السعد ؟

ــ دائما فى خدمتك أنا ياحاجة .. إسماعيل الله يحرسه لا يريد أن أكون خادمة عند أحد .

الحاجة صديقة امرأة يضيق الخلخال عن رجلها .. وجهها فطيرة مشلتت .. صدرها ويدها يلمع الذهب فيهما من بعيد . تلبس كل يوم جلبابا.. عندها ملس أسمر تلبسه عنه الخروج . امرأة غنية لكنها طيبة القلب .. سلطانة فى بيتها .. فى الفرن .. وفى حظيرة الماشية حين تشرف على عملية الحلب ، حتى زوجها شيخ البلد على سن ورمح يسمع كلامها .

اليوم يولد الحلم الأبيض .. معها أربعون بيضة تبيع كل بيضتين بقرشين ونصف .. أخذت تعدّ القروش وأنصافها .. ياه .. يا سلام .. ستمسك بيدها خمسين قرشا مرة واحدة . أمنية ملأت قلبها صفاء . من ستكون الحاجة صديقة بجوارى ؟ .. سأصبح مثلها بفضل الله ولا حاجة لمخلوق . الزرع الأخضر يملأ الأرض .. السماء صافية .. الشمس ترسل أشعتها للكون .. كل الكون .. الترعة بعيدة .. عطشانة يا إسماعيل .. !! مهما تحزن منى يا إسماعيل

أو أحزن منك لا بد أن أصالحك .. الله يكره المرأة التى تتعب رجلها . الذى يحب لا يجب أن يعرف الخصام طريقاً إلى قلبه .. الريح تلعب بالأشجار ..

الحلــو مخاصمنـــى شاهــده يــا امــه
ولا بيكلمنــــــى شاهــده يــا امــه
قــولى لــه يــا امــه يصالحنــى يــا امــه

الشوق إلى الأمل يشوى القلوب الخضراء .. كانت تحلم برجل .. وأولاد .. وبيت له باب وترباس . كل ما تريدينه يا أم السعد موجود .. أمام العين .. غدّارة يادنيا وفرّاقة .. !

اليوم تبيع أم السعد البيض .. بخمسين قرشا .. نصف جنيه عليه صورة الملك وقد لبس الطربوش .. تشترى رطلا من العجوة حتى تفرح رجلها وتغذيه .. الرجل يعمل كل يوم ولا يذوق اللحم إلا فى العيد .. والكرشة مرة فى الشهر . عشرة كتاكيت تشترى .. سوف تكبر وتصبح دجاجات وديوكا .. تملأ البيت حركة وبركة . حين تكبر الفراخ تبيعها وتشترى بطًّا ووزًّا .. افرح يا إسماعيل إذا لا قدر الله وحدث لواحدة منهن مكروه سأذبحها لك وأعطيك لحم الصدر، يشد حيلك ويقوّى عظامك . الرجل القوى عُقد فى صدر

امرأته . أحست أن الدنيا ضيقة بالنسبة لحلمها .. امرأة غنية سأكون ياحاجة صديقة ، وإسماعيل يصبح رجلا من ذوى الأملاك .. عنده بقرة . الفرح يملأ صدرى . يوم نذهب إلى نفس السوق لشرائها بعد بيع البط والوز .. سأشترط على إسماعيل أن يكون لونها فريدا ليس مثل أية بقرة فى القرية . يوم أصحبها لتشرب من الترعة سألبس الطرحة وأمشى فى دلال .. يا أرض اشتدى ما عليك قدى . الأمل يحيى النفوس كما تحيى المياه الأرض الشراقى .

جماعة من النسوة يثرثرن فى شئون البيت .. ومتاعب الحياة .. ومطالب الأزواج . رفضت أن تسير معهن .. مشت وحدها تتأمل الحلم فى الأفق المفقود .. الذى لا يحلم عاجز ، والعجز حمار الضعيف . طار فوقها غراب .. يصيح . انقبض قلبها فجأة .. صاحت ملوّحة بيدها :

ــ يافتاح ياعليم .. اغرب ياغراب .

ميدان السوق بدأ يظهر من .. بعيد .. كلما اقترب أحست الحلم يولد .. والأمل ينمو . ياقلبى الحزين ستفرح .. ستفرح بعد سنة تملك بقرة ، تصبح من ذوى الأملاك يا إسماعيل .. الذى لا يملك شيئا فى الحياة ليس محسوبا عليها ياحبة عينى .

بعد أن تكبر البقرة سيأخذها إسماعيل إلى ثور شيخ البلد حتى تحمل . تضايقت من هذه الفكرة .. فكرة العوز المستمر إلى شيخ البلد . حتى بقرتها لن تحمل إلا إذا ذهبت إلى دواره .. ليس مهمًّا ، سوف تساعد الحاجة صديقة يوما فى عمل البيت، حتى لا يأخذ زوجها أجرًا على بقرة إسماعيل . شهور تسعة بعدها تلد البقرة .. أيوه .. لن تكون عقيمة مثلى .. تلد عجلا جميلا .. قويًا. الله يعوض صبرك خيراً . العجل الصغير .. سوف يلعب .. ويلعب بجوار أمه .. لن أربطه بحبل .. سأتركه يسير هنا وهناك .. يمشى براحته .. يوم السعد يا أم السعد . العجل الصغير سوف يشرب اللبن من أمه فى الصباح .. والمساء .. حتى يصبح قويا . بعد أن يشبع .. سوف يجرى ويقفز .. يا إسماعيل .. وإذا حاول أن يصعد على المصطبة .. سيقفز هكذا .. هكذا يا إسماعيل .. قفزت دون أن تعى، فسقطت سلة البيض فى التراب . انكسر البيض .. اختلط السائل الأصفر بالتراب الأسود . طارت طرحة أم السعد فى الهواء . وسط البيض المكسور فى التراب سقطت دمعة من عين أم السعد . كانت هناك بيضة .. بيضة واحدة سليمة . أعادت الطرحة إلى مكانها .. تذكرت إسماعيل والحاجة صديقة .. الدجاجة والبقرة . أمسكت البيضة المتبقية ومضت فى ثقة تتأمل شمس الضحى وخضرة الحقول .

كُتبت فى مدينة أسوان .. يناير ١٩٨١

الغريقة

ــ يا حضرة العمدة .. حلاوة ماتت .

صاح عبد المقصود الخفير بهذه الجملة أمام بيت العمدة .. أخذ يكررها مسعورًا . خرج العمدة وهو يكمل ارتداء بدلته ويثبت نظارته الطبية .. انسلّ من الباب .. وقال مضطرباً :

ــ يا فتاح ياعليم .. عمرك ما تقول غير الأخبار الشؤم .

كان الخفير هزيلا يغوص فى بالطو صوف عسكرى ، وينوء كتفه الأيسر بحمل بندقية من أيام عرابى . لعن العمدة فى سره بدواى ومن فيها .. لِمَ جاء من المنصورة وهو يبيت هناك كل ليلة .. لِمَ .. ؟

ــ أيوه يا سعادة البيه العمدة .. أم السعد كانت تملأ البلاص فى الفجر .. رأت جثة تحت الكوبرى .. صوتت ..

ــ اخرس يابهيم .

رقدت الجثة منتفخة من كثرة ما بلعت من مياه .. على كومة من القش .. وملاءة محلاّوى نيلة تغطيها . احتشدت القرية .. والتفت حلقات حلقات حول الجثة . سبحان الله ــ حين كانت حلاوة تسير فى الشارع كان يفر منها الناس ، لأنها سليطة اللسان ، لم يكن

لها حسب أو نسب .. مقطوعة من شجرة .. فأهلها ماتوا وأخوها الوحيد سُجن فى قضية مخدرات .. وهى بعين واحدة كانت .

ـــ أفسح الطريق لحضرة العمدة .. ياجدع .

تقدم حسين أفندى العمدة من الجثة . تردد للحظة.. خاف .. العمدة بجلالة قدره يخاف من الموت.. ياخبر أسود . تذكر حقيقة أنه عمدة .. كشف له شيخ الخفراء الوجه المنتفخ فبدا الفم فاغرا مثل باب القبر .. و لم ير العمدة شيئاً بعينيه ونظارته .

ـــ يا مسكينة فى الحياة والموت .. يا حبيبتى ى !!

شقت امرأة بنواحها الصمت الغامض . فرَّ العمدة من أمام الجثة .. خرج العمدة بعيدًا . لكن القرية كلها كانت حوله .. العيون زائغة .. والقلوب ذاهلة .. الكل يبحث عن إجابة سؤال واحد .. من الذى قتل حلاوة ؟ ..

ـــ حلاوة ليس لها أهل .. لكن هى بنت بلدنا ، والحق لازم يظهر ياعمدة .

هكذا نطق شعبان المدرس الابتدائىّ .

ـــ مستحيل أن يكون أحد قتلها .

رد شيخ البلد الحاج إبراهيم فى حماس وعيناه تنظران بحدّة .

ــ جايز انتحرت ياجدعان ..

قال شيخ الخفر فى صوت شاحب .

لم تظهر الشمس بعد .. قطرات الندى تتساقط على رءوس البشر ، اختلط المكان بالناس والحيوانات . وقفت الحمير والبهائم والبقر والماعز فى صمت مع الناس تسأل عن الحقيقة .. وتبحث عن سر الحادثة .. لكنّ أحدًا لا يعرف ماذا حدث .. ولا كيف ماتت حلاوة ؟ ... كانت العيون لا ترى .. لا ترى شيئًا فى الأفق .

ــ عينى عليك يابنتى .. يادهويتى ى .

ظهر حلاّق الصحة فجأة .. الحاج سيد .

ــ يا عمدة أكشف عليها .. ربما ما زالت فيها الروح .. لن آخذ أتعاباً .. كله فى سبيل الله .. الله هو الشافى .

كانت الحقيبة تهتز فى يده .. والجميع ينظرون إليه فى سخرية .

ــ حلاوة ماتت وشبعت موت ياحاج .. وفّر الحقن والحبوب والنشادر .. أحسن تأخذ ثمنهم من كل واحد فى البلد .

ــ آه يابلد .. جزاء المعروف متلوف .. (نظر إلى عينى العمدة .. كانتا تحدّقان فى لا شىء .. والصمت يلف أهل القرية جميعا) .

— شاهد ياعمدة ..

كان منظره يدعو للسخرية والاستهزاء لو كان الظرف مناسباً.!!

— هل نطلب الإسعاف يا عمدة ؟

— الإسعاف لا تحمل الموتى يا مغفل ؟!

نظرات الجمع المحتشد من الرجال والنساء والحيوانات، لم تكن تتلاقى إلا نادراً .. كان كل واحد يفكر — حسب عقله — فى سر الوفاة ؟ هل انتحرت حلاوة .. ما الذى يدفعها إلى الانتحار وهى فتاة مسكينة لا أهل .. ولا مال .. ولا جمال . فى الثلاثين كانت عند غرقها .. تمثال مجسد للدمامة وعدم الاتساق .. عوراء .. عين واحدة ترى من خلالها الدنيا السوداء .. لم تترك بيتا من بيوت القرية دون أن تعمل فيه .. فهى تجيد العمل فى البيت والزريبة والغيط .. أكل العيش مّر .. سليطة اللسان لا ترحم أحداً .

— أمى تقول لك تعالى اخبزى معها .. يا حلاوة .

— طيب يا روحى وأبوك فين ؟

......

— بنت ياحلاوة تعالى نظفى الزريبة غدًا .

— الوساخة من البهائم .. حتى اسأل الحمير.

......

— هل تتزوجينى يا حلاوة ؟

— عيب .. أمك تطلق أبوك .

.....

كانت متمردة على كل شىء ، تعمل حمارة فى أى شغل ، لا تدرى ما فائدة الحياة .. ولا لِمَ خلقها الله بعين واحدة .. دون بقية البشر .

إحساس بالأسى يغمر القلوب .. لم يقل واحد لها يوماً كلمة طيبة .. فى كل مكان تراها .. حتى المقابر كانت تعمل فى بنائها أحيانا . عادى أن تراها فى أى ساعة من الليل أو النهار .. فهى حسب الطلب . الولد مصطفى ابن شيخ الخفر أعطاها يوما قطعة حلاوة طحينية ودخل معها الدوار . بجوار البهائم التقى بها .. كان يعرف ما يريد .. وكانت تقول .. الله الحلاوة حلوة يا حلاوة !

— آه يابلد .. ولا واحد قادر يعرف الحقيقة .. ماتت حلاوة ياعينى على الغلبان ..

هكذا قالت الحاجة فاطمة الداية .. وهى تلف الطرحة حول رأسها .

هل انتحرت حلاوة .. هل بطنها منتفخ مـن الماء أم لسبب

آخر .. هل دفعها أحد إلى الترعة .. وأسقطها فى قلب الليل . لكن أين الخفراء وشيخهم .؟ كانوا يأكلون أرزا باللبن والسكر مع الملائكة .. أليس من الممكن أن يكون واحد منهم هو الفاعل .. أو على الأقل المتستر على الحادث . ؟!

ياناس إن بعض الظن إثم .. حلاوة هذه بنت طماعة أرادت أن تحضر الماء للناس الذين تعمل عندهم فى الليل ، ثم تجمع القطن فى النهار، حتى تقبض يومية خمسة قروش ، نصف بريزة .. لكن قدمها سقطت فجأة .. نظرها على قدها .. عين واحدة نصف عمياء .. أو نصف مبصرة سيان .. وقعت .. قضاء وقدرا . ربما جنيَّة رأتها وحدها فى الليل فشدتها إلى صحن الترعة .. الجن عفاريت .. لكن ما عفريت إلاّ بنى آدم .

ــ أكيد الحادثة وراءها سر .

ــ لكن الفاعل مجهول .

حلاوة الغلبانة من كانت تعمل عنده وتساعد امرأته يدافع عنها .. طالما بقيت فى خدمته .. كان الحارس لها هو اللص .. الذى يسرق عمرها .. وأحياناً شرفها .

كانت بعين واحدة والكل بعينين .. لِمَ يا ربّ !! ؟

ــ أم السعد يا أختى الواحدة كفرت من الشغل ، هو أنا مكنة .. حتى الناس تشغلنى شغل البنى آدمين .. والحمير .. بذمتك أليس الموت أرحم من الحياة ؟

ــ عيب يا بنت يا حلاوة ضعى فى عينك حصوة ملح .

ــ عينى فاضية يا خالة .

ــ ماذا تعمل يا عمدة ؟

ــ والله ما أنا عارف يا شيخ البلد ؟

ــ أقول لك يا عمدة .

ــ قل يا شيخ الخفر ؟

ــ ندفنها .. والله حليم ستار .. الحاج سيد يذهب لإحضار تصريح دفن، كما يفعل كل مرة من المركز .

بدا الحاج سيد فى صورة المنقذ .. عدل البالطو الأبيض المزيت، الذى تفوح منه رائحة صبغة اليود .. والسبرتو الأحمر. قال :

ــ لكن يا عمدة طبيب المركز فى هذه الحالة، لا بد أن يأخذ إكرامية .

ــ نسيت محفظتى .

تمتم العمدة فى صوت خفيض وعيناه زائغتان .

قال الشيخ عمران إمام المسجد : جنيه من عندى للطبيب وربع جنيه لك حتى تعمل اللازم .

ــ خلاص يا أهل البلد .. كل واحد يشوف حاله .

زعق شيخ الخفر وهو يهش بعصاه على كل من يلقاه .. بدأ الناس يتحركون فى تكاسل .. الشمس ما زالت غائبة .. سحب داكنة تغطى السماء .. شبورة سميكة تطل فى الأفق .. العيون كل العيون .. تنظر إلى الأفق المجهول .

ــ كل من عليها فان !!

تمتم الشيخ عمران وهو يهزّ حبات المسبحة فى أسى ..

تفرّق أهل القرية كل واحد فى طريقه .. كان كل واحد لا يرى إلا طريقه هو .

قال : إسماعيل العامل الزراعى وهو يسحب حماره :

ــ والله ما أنا فاهم حاجة يا ولد يا على .

ــ هم اللى فهموا عملوا إيه يا عم ؟!

فبراير ١٩٨١

الله محبة

تطلع إليه الجالسون فى مضيفة شيخ البلد . كان ذا قامة شامخة ووجه مشوب بسمرة خفيفة . فتح زرار جاكتة فظهرت من جيب الجلباب سلسلة فضية.ثبت نظارة طبية على أنفه وأردف المقدس خليل قائلا :

ــ اسمعوا يا رجال .. البلد محتاجة مدرسة .. لو انتظرنا الحكومة عشرين سنة لن يسأل فينا أحد .. !

ــ المدرسة ضرورية للبلد كلها .. لهذا جمعتكم فى بيتى .

هكذا قال الحاج إبراهيم شيخ البلد .

واصل الشيخ عمران الكلام قائلا : لازم تكون مشتركة .. البنات تتعلم اليوم مثل البنين . !

ــ المسافة من البلد للمنصورة عشرون كيلو .. أولادى كلهن بنات .. التعليم ضرورى .. لكن لا أقدر على تكاليف الإقامة فى البندر .

كان هذا كلام ميخائيل صاحب خلية النحل الوحيدة فى القرية .

رفع المقدس خليل يده اليسرى كعادته حين يكون مستغرقاً فى الحديث وقال : لازم نتبرع كلنا .

— كل واحد على قد طاقته .

الفراش يتطاير حول ضوء الكلوب .. المندرة ضاقت بالحاضرين .. قلل الماء فرغت من كثرة الشرب .. لا نسيم يهب فى ليالى مايو الجافة .

بينما كان متحمساً لفكرة إنشاء مدرسة ثانوية بالقرية تذكر أنه تعلم منذ أربعين سنة فى مدرسة إلزامية مبادئ القراءة والكتابة . أيام زمان المدارس كانت للبنين فقط .. التعليم كان تعليما بحق وحقيق . الدنيا تغيرت . المدرسة الحقيقية هى الحياة . عمل مع والده فى محل بقالة يصرف تموين القرية كلها .. لا يغش ولا يغلى الثمن . عيبه الوحيد فى نظر أهل القرية أنه لا يبيع دون أن يقبض الثمن مقدما .

مساء الخميس يقل عدد الساهرين على مصطبة دكان المقدس خليل .. حيث ينشغل الناس فى عزاء من يموت .. والسهر فى المقاهى .. وشرب الجوزة .. وسماع أم كلثوم .. ليلة الجمعة هذه ليلة مفترجة .. كلها بركة وقل ياباسط .

كان يجلس معه على المصطبة ثلاثة أشخاص : إسماعيل العامل

الغلبان ، وميخائيل صاحب المنحل ، وطالب جامعى هو مصطفى ابن شيخ البلد.الولد مصطفى أراد أن يكون أستاذا قبل الأوان :

ـــ يا رجال .. الدكتور الذى يدرس لنا فى الجامعة تعلم فى أمريكا .. تصوروا .. (أخرج منديلا معطرا من جيب جلباب أبيض مكوى ومسح به وجهه) .. المرأة هناك مثل الرجل تماما .. تختار نوع التعليم .. والعمل .. حتى الزوج .. تختاره .. وتمتحنه .. زمان كانت الناس تظن أن الشمس تدور حول الأرض .. لكن العكس هو الصحيح . الحياة تتطور والعلم يتقدم لكن ..

ـــ الدنيا هى الدنيا يا ابنى .. وأكل البلح حلو لكن النخل عال.

هكذا قطع إسماعيل كلام مصطفى، فى حين واصل ميخائيل الحوار قائلا :

ـــ يا عم سيبك بلا شمس بلا قمر . القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .

ـــ من الحق يا رجال ... السكر الشهر القادم سيزيد قرشا على كل كيلو . هكذا قال المقدس خليل .

يحكى أن فيلا وأرنبا وديكاً التقوا فى غابة .. قال الأرنب : أيها الفيل العظيم لا يغرّك أن خرطومك طويل ، وأن حجمك ضخم ،

فأبى هو الذى غرس كل أشجار هذه الغابة وجعل فى وسطها نخلة .

رد الفيل قائلا : يالك من دعىّ .. أبى أنا هو الذى زرع كل هذه الغابة وجعل فى آخرها شجرة كافور .

وهنا صاح الديك : يا أعزائىَّ كل منكما جاهل ومغرور .. الحقيقة أعرفها أنا وحدى .. ما حولنا ليس غابة وإنما صحراء يملكها أبى ، وقد ملأها بالصخور والرمال حتى نصيح فى أى مكان فيها .

تاهت النجوم فى السماء بينما كان يطرق الباب على زوجته مريم .. دخل وبدأ يخلع الجاكتة ويضعها على شباك سرير حديدى . وضع نفسه فى جلباب مخطط استعدادا للنوم فى حجرة شاحبة الضوء .

تمدد على السرير بجوارها .. سحبت عليه الغطاء فى حنان ، بدت له فى صورة سامية .. ما زالت مصرّة على أن تكون له نظيفة لطيفة مثلما كانت ليلة العرس . الله فى السماء والزوج فى الأرض .. هذا ما تؤمن به .. بدأت تلف ذراعها حول عنقه ، وقد سبقتها رائحة عطر البنفسج . رسمت علامة الصليب — صليب المحبة والإيمان — وأطفأت المصباح . الذى وهبه الرب نوراً فى داخله لا يحتاج إلى نور البشر .

فى طريق العودة من قداس الأحد كانت معه زوجته وابنته

مارجريت ، وولداه هانى وسامى . الشمس مشرقة .. الأرض ما تزال تنتج الخير مثلما فى أول الوجود تكون . كلمات الأنبا برسوم ما تزال ترن أصداؤها فى خاطره وهو يتلو عليهم آيات من إنجيل لوقا .. « هل يقدر أعمى أن يقود أعمى ، أما يسقط الاثنان فى حفر ؟ ليس التليمذ أفضل من معلمه ، بل كل من صار كاملا يكون مثل معلمه . لماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها... ؟ أو كيف تقدر أن تقول لأخيك يا أخى دعنى أخرج القذى الذى فى عينك وأنت لا تنظر الخشبة التى فى عينك . يامرائى أخرج أولا الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى الذى فى عين أخيك ، لأنه ما من شجرة جيدة تثمر ثمرا رديا ، ولا شجرة ردية تثمر ثمراً جيداً ، لأن كل شجرة تُعرف من ثمرها . فإنهم لا يجتنون من الشوك تينا ، ولا يقطفون من العليق عنبًا .. !! ».

دخل إسماعيل الدكان وعيناه زائغتان :

ــ بقرش حلاوة طحينية يا عم خليل .. !

رد أحد الجالسين : حلاوة مرة واحدة يا ولد يا إسماعيل !

ــ أنا راجل ياعم هنداوى .. حلاوة .. حلاوة .. من عرق

جبينى !!

امرأة تشترى إبرة وخيطا صاحت فيه :

ـــ أنت دائما تعمل غارة فى كل مكان يا زوج أم السعد ؟

ـــ آه يا بلد .. كلكم على الغلبان . ؟!

نظر إليه المقدس خليل فى إشفاق وقد مضى فى صمت .. رسم علامة الصليب .. وقال فى صوت خافت :

ـــ الله محبةْ .. يا عالم .. اتركوا الخلق للخالق .. !!

فبراير ١٩٨١

البالونه

قال الراوى :

يا سادة يا كرام ، صلوا على طه خير الأنام . الليلة أروى لكم حكاية لو كتبت بالإبر على أوراق الزهر ، لكانت عبرة لمن يعتبر ..

بينما الراوى مشغول بقص حكاية سعد اليتيم ، كان الخفير عبد الجبار تائها وسط الكتل البشرية التى احتشدت فى فرح كارم المدرس الابتدائى . القرية ليس لها أى وسيلة للترفيه ، لذلك حين يوجد فرح أو مأتم تجد الكل موجودين .. الليل طويل .. آه ياليل الغلابة . كان كل واحد من الحاضرين فى عالم خاص . أصدقاء العروس يهنئونه وهو يلبس جلبابا أبيض ، صبغ يده اليسرى بالحناء فالليلة ليلة الحنة . الولد يمانى الحلاق يجلس على يساره ، أمامه صينية من النحاس مليئة بالنقود .. بالنقطة ، فكل واحد عليه اليوم أن يرد له ما سبق أن أخذ منه .

— شوبش ياحبايب العريس .. شوبش .

عبد الجبار فى دنيا أخرى . لا هو مع العروس ولا مع أصدقائه الذين يقدمون له بين حين وآخر سيجارة محشوة .. آخر تمام صنف

معتبر ، ولا مع الراوى الكفيف الذى تعلق الجمهور بين فمه وربابته .. الجمهور يتابع القص فى جوع شديد . عبد الجبار توسط له الشيخ عمران إمام المسجد عند العمدة حتى أدخله سلك الخفر .. رجل فقير وعنده عشرة من الأولاد . أحس أنه بالوظيفة الميرى — أربعة جنيهات فى الشهر — وبعمل الأولاد سيدبر حاله ويطعم عياله . يتمنى أن يعلّم ولدا فى المدارس ، يلبس بدلة ونظارة مثل أولاد الذوات. يا سلام يا عبد الجبار لو يكون لك ولد طبيب أو مهندس .. أو حتى مدرس ابتدائى .. المهم يكون موظفا فى الحكومة .. على رأى المثل « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » .

— اسمع يا عبد الجبار أنت تعمل باليومية نهاراً ، وفى الليل تسهر فى الدرك .

— نعم .. يا شيخ الخفر .

— عندى لك شغلة عظيمة .

— ربنا يعمر بيتك ويخليك لنا .

— تحرس حديقة برتقال العمدة .

حين تسلّم عمله فى الحديقة كان يحس بالزهو ، وهو يسير وحده فيها . بدأ يتابع نمو البرتقال فى صمت وصبر . زهر البرتقال جميل

الرائحة يملأ الدنيا عطرًا . تحولت الزهرة البيضاء إلى ثمرة خضراء مثل الليمونة .. أخذت تكبر .. تكبر ، لكنها تظل خضراء . يتحول اللون الأخضر تدريجيا إلى صفرة خفيفة.ثم ما تلبث أن تصبح صفراء فاقعة . من العش شرق الحديقة يتأمل البرتقال ينمو فى بطء ، والعالم يتحرك فى هدوء . صار لا يذهب إلى القرية إلا نادراً . امرأته تحضر له العشاء كل ليلة ، تثرثر معه حول أخبار الأولاد وأحاديث القرية .

ـــ يا سلام يا عبد الجبار لو كانت هذه الحديقة ملكًا لنا .. !!

ـــ اخرسى ياوليه .. لا تفكرى فيما ليس لك .. تتعبى .

ـــ لكن يا عبد الجبار ..

ـــ ماذا .؟

ـــ الذى يبيع السم لابد أن يذوقه .

ـــ قولى بصراحة ما تريدين ؟

ـــ جوال من البرتقال ، نبيعه فى السر ، ولا من شاف .. ولا من درى .

ـــ لن يأكل أولادى من حرام .

ـــ أليس حراما أيضاً أن يجوع أطفالك والخير يطفح من جيب العمدة ؟

— حدّ الله بينى وبين الحرام .

حواء أخرجت آدم من الجنة حين طلبت منه تفاحة ، اليوم صبرية تطلب من زوجها برتقالة . زجر زوجته بخشونه حين صرّحت له بالفكرة .. لكن الوسواس الخنّاس ركبه . ظل يفكر فى الأمر من شمال ويمين .. ومن فوق وتحت .. ماذا يحدث .. هل سينهدّ الكون ؟ إنه مجرد جوال من البرتقال يجمعه فى الليل،ويعطيه لأم الخير بائعة الفاكهة،ويأخذ .. يأخذ منها جنيها كاملا.. أخضر ، عليه صورة فرعون . الجنيه لن يضلع العمدة ولن يدرى ما حدث ، فهو يبيت كل ليلة فى المنصورة . لكن الجنيه جلباب لصبرية .. رطلان من اللحم للأولاد .. علبة سجائر ماكينة ، سيخرج السيجارة من العلبة فى فرحة وكبرياء ، ويشعلها بعود الكبريت ويلعن الجوزة التى قطعت أنفاسه .

أفاق على صوت الراوى يشد أوتار الربابة استعدادا للغناء .. أخذ صوته يهدأ .. يهدأ .. وهو يقول :

هذا ما حدث لسعد اليتيم من المصائب والأخطار ، والحوادث والأسفار ، وما تحمل فيها من أنواع العذاب وآلام الاغتراب .. وهنا يا سادة يا كرام لابد أن تعلموا أنه لا ينفع حذر من قدر ، وأن

المكتوب على الجبين لابد أن تراه العين ، فلا مفر من القضاء للمحاذر ، وما أحسن قول الشاعر :

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدًا ، وما هو كائن سيكون

سيكون ما هو كائن فى وقته وأخو الجهالة دائما مغبون

عاد عبد الجبار إلى بحر الآلام داخله . يحس أنه يحمل جبلا من الهم . الأوهام الزرقاء تملأ دماغه . لعنك الله يا صبرية .. أنت السبب . فتش عن المرأة .. المرأة وراء كل مصيبة .. مسكين يا آدم .

ــ هكذا يا عبد الجبار حاميها حراميها .

ــ استر علىَّ يا عم مصطفى الله يستر على ولا ياك .

نظر إليه فى غيظ وهو يهز كتفه :

ــ ماذا أقول للعمدة .. أقول له إن الرجل الذى اخترته أنا بنفسى لك .. لص .. حرامى ..

ــ غلطة لن تتكرر ــ أراد أن يقبل يده ــ توبة والنبى توبة .

ــ قل هذا غدًا للعمدة .. من اليوم اترك الجنينة ، وسلّم البندقية فى التليفون . وإن شاء الله مرفوت .. مرفوت .. يا كلب .

ــ أنا صاحب عيال .. استر علىّ من أجلهم ..

ــ ولِمَ لمْ تفكر فيهم وأنت تفعل فعلتك السوداء .. ؟

كيف يجلس فى دار الفرح من كان قلبه مليئا بالهم . أحس أنه غريب.الكل فرحان إلا أنت يا غلبان . خرج دون أن يشعر به أحد . طفل أمام الدار ينفخ فى بالونة زرقاء . كلما نفـخ فيها ازدادت امتلاء .. البالونة تكبر وهو لا يكفّ عن النفخ .

— يا ولد لا تنفخ البالونة كثيرا حتى لا تفرقع .

أدرك أنه لأول مرة يسير ليلا دون أن يحمل البندقية على كتفه . سار وحيدًا على شط الترعة . الأشجار أشباح راقصات تريد أن تخنقه . ضاعت الوظيفة الميرى يا عبد الجبار . ياحيرتك يا مسكين . لعنة الله عليك يا صبرية . أنت السبب . لكن أنا .. أنا الذى استمعت إلى كلامها . ياويلك من العمدة .. ومن شيخ البلد .. وشيـخ الخفر .. والخفر .. والخفراء .. إذا وقعت البهيمة كثرت السكاكين حولها . لا أحد اليوم يقول كلمة طيبة فى حق أىّ مخلوق ، ياناس ياشر كفاية قر ، أخذتم تقرون حتى حدثت المصيبة . ترى ماذا سيفعل العمدة ؟ الرفت من الخدمة . لكن هل هذا يشفى غليل العمدة ؟ مستحيل .. ولِمَ يكون مستحيلا وقد رأيته يفعله بعينى هاتين اللتين سوف يأكلهما الدود ؟ العمدة سيعطينى علقة ساخنة بعصاه الخيزران . كيف تمشى فى القرية بعد ذلك يا عبد الجبار ؟ ماذا

سيقول أطفال القرية لأولادك . يا أبناء الحرامى لا تمشوا معنا فى طريق . حتى الأطفال الأبرياء يرون بعيون الكبار .. الكبار الأشرارَ . ماذا أفعل يارب ؟ تخيل جنيّات تخرج من الترعة .. الأشجار تعلو .. صارت شياطين لها ألسنة من نار حمراء . صار يسمع أصواتا لا يعرف لها لغة،ولا يدرى من أين تأتى.؟ الأصوات تمتد والأوهام تكبر . الأشباح تصيح .. تسد الدنيا صار أسير الوهم . الوهم حين يسيطر على الإنسان يا عبد الجبار يسد عليه كل طاقة نور ، نحن أسرى ما نعتقد ، خرب الله بيتك يا عم مصطفى كما خربت بيتى .

عاد إلى البيت خائفا يترقب . الجميع نائمون حتى زوجته .. سامحك الله يا صبرية ، عملت العملة وخرجت مثل الشعرة من العجين . ترك الترعة هاربا من أشباح الوهم ، وها هى ذى الآن أمامه فى حجرة الفرن . رغم أن الباب مغلق بالترباس ، لكنه يرتعد خوفاً . كل خلية فيه انفصلت عن الأخرى.أحست به زوجته قرب الفجر يتقلب مثل الفولة على النار .

ــ ما لك يا ضنايا ؟

ــ ....

كان جبينه يتفصد عرقاً . انهارت شجرة الجميز . فى يوم وليلة صار شيئاً آخر . تغير كل ما فيه . ترى ماذا يصنع الهم فى البشر ؟ .

ـــ ولاد الحرام حسدوك،لابد أن أبخرك وأرقيك .

رائحة البخور تملأ حجرة الفرن ، لكن الأشباح ما زالت تتحرك أمام عينى الرجل .

ـــ أغلقى الباب بالترباس يا امرأة .. لا أريد أن يدخل أحد .

كان ضائعا فى عالم آخر . بدا رأسه الملىء بالأوهام والأشباح مثل البالونة . أخذت صبرية ترقيه وهى تلف يدها اليمنى حول رأسه وقد أمسكت كسرة خبز ، سوف ترميها لأحد الكلاب بعد أن تنتهى من الرقية .. أخذت تحرك يدها حول جسده قائلة :

ـــ الأولة باسم الله .. والثانية باسم الله .. والثالثة رقوة محمد بن عبد الله . رقيتك من عين الراجل أحدّ من المناجل . رقيتك من عين المرة أحدّ من الشرشرة . رقيتك من عين اللى شافوك وحسدوك ولا صلوا على النبى .. لا صلى الله عليهم ولا على والديهم ، وينقلب حسدهم فى عينيهم . روحى ياعين يابصاصة لأرميك فى مية غطاسة، وأضرب عليك ميت رصاصة ، لا تتعبى لى ولد ، ولا تحرقى لى كبد ، ولا تنزلى لى بلد . أعوذ برب الفلق .. أعوذ برب الفلق . من شر

ما خلق . ومن شر حاسد إذا حسد ، ومن شر النفاثات فى العقد .

توقف مسار الكون . فقد عبد الجبار القدرة على النوم والحركة .
الزمن يمضى .. بط .. يئا .. بطيئاء مستحيل أن يكون الزمن متعادلا . هناك أيام تمر كأنها لحظة ، ولحظة تمضى كأنها سنة كاملة .
نظرت إليه صبرية فى صمت.لعنت نفسها . تمنت أن يحرق الله البرتقال من الدنيا كلها . يوم واحد يحدث لك فيه كل هذا ياجملى ، يصبح الجبل العالى كومة من الرمال المبعثرة .

دخل .. عبد الجبار المضيفة التى طالما دخلها حاملا البندقية على كتفه ، ووقف أمام العمدة فى كبرياء ! اليوم اهتزت الدنيا فى عينيه . عزيز قوم ذل . العزة ليست فى المال . العزة عزة النفس . شيخ الخفر ينظر إليه متشفياً . المقدس خليل جاء يرجو العمدة أن يسامحه . الشيخ عمران يريد أن يدفع ثمن جوال البرتقال . حتى إسماعيل العامل الزراعى كان واقفاً فى حسرة أمام المضيفة ، قال له وإن لم يسمع ما يقول :

ـ شد حيلك يا أخى .. شدة وتزول .. ربك كبير .

العمدة ملأ الناس رأسه بالنميمة . أصر على الانتقام . كيف يجرؤ كلب أن يسرق سيده . دخل وقد ضاع من قدميه الطريق .. لا يرى

أحدا .. لا يسمع شيئا . كان رأسه ينتفخ .. ينتفخ .

اسودت الدنيا فى عينيه . قبل أن يقول له أى واحد كلمة .. أو يقول هو كلمة واحدة .. سقط .. سقط عبد .. الجبار . عصفورة صغيرة كانت تقف على الشباك طارت بسرعة قبل أن يحس بها أحد .

مارس ١٩٨١

عندما يسقط المطر

ـ قولى ماذا أفعل يا أمى ؟

ـ تصبر يابنى .. كل عقدة ولها عند الكريم حلال .

انكمش عنتر داخل نفسه . تمنى أن يبكى . آه .. يا أمى .. من كان يصدق أن كل هذا سوف يحدث . غاب سبعة شهور . حضر الحرب .كان أول العابرين إلى سيناء الحبيبة .. أرض القمر . قاتل العدو فى كل لحظة .. بكل قوة . انتصرت إرادة الحق ، كان يحارب من أجل مصر .. ومن أجل فايزة . مصر الأم .. وفايزة الأمل . انتصر فى الحرب فهل يمكن أن ينهزم فى الحب . ؟ فى الميدان نعرف العدو فنقتله ، لكن من هم أعداء الحب .. يارب ! ؟

نظرت الأم حزينة إلى وحيدها لا تدرى ماذا تقول له . عاد من الحرب إلى عربته الكارو وحصانه الأدهم . أحس أن عالمه ينقصه شىء .. شىء ما أفقد الحياة طعمها الحلو . تمنى ألا يعود . تأملته أمه فى حسرة : ماذا حدث لك .. يا ولدى .. ؟ عندما كان عنتر يستريح يوم الجمعة ويأخذ حصانه فى الصباح .. يستحمان معا ، يعود وقد ركبه كما عنترة تحكى عنه المواويل والحكايات . عنتر

يا ولدى ماذا تصنع لك الأم الفقيرة — فايزة حبيبتك ضاعت . خطبها ابن شيخ البلد ، يملك أرضا وله عزوة . قوم فقراء نحن يا عنتر، لا نملك سوى القلب الأخضر والنوايا الطيبة . الفرخة عايزة قمحة ، والقمحة عند الفلاح ، والفلاح فأسه عند النجار ، والنجار عايز منشار ..

أفاقت الأم من شطحاتها على طرق شديد ، يكاد يخلع باب الدار . لم يكن عنتر أقل حيرة من أمه . ذعرت أم عنتر بصقت فى طوق جلبابها قائلة « اللهم اجعله خيرا ». فتحت الباب ، ظهر عبد المقصود الخفير ، على كتفه بندقية ، وفى يده عصا يلوح بها فى الهواء . دخل مندفعاً يبحث عن عنتر الذى كان يجلس على المصطبة دون أن يراه .

— أين عنتر ياوليه ؟

إحساس بالضيق والقرف يملأ حلقه . استجمع أجزاء جسده المفكك . نظر فى غيظ :

— أنت خيال مقاتة يا قليل الحياء .. من علمك أن تدخل بيوت الناس هكذا .

— عيب يا عنتر .. أنا مثل والدك .

إذا احترمت الناس أهانوك ، وإذا أهنتهم احترموك . لا أحد يأخذ حقه بغير الذراع القوية واللسان الطويل ، هذا منطق الزمان الأغبر الذى نعيش فيه يا عبد العاطى .. يادون .. يا ابن حميدة بائعة الترمس . كان يحدث نفسه وهو ينظر إليه فى غيظ . تبادلا نظرات حاقدة .

ـــ طيب .. شيخ البلد عايزك .. وإن كنت جدع اظهر شطارتك عنده .

كانت الأم تنقل بصرها فى لهفة بين الرجلين :

ـــ يا عبد المقصود يا ابنى .. عيب الغلابة يأكلون بعضا .. هذا حرام .

لمَ تتجمع المصائب دائما فى وقت واحد ؟ لقد عاد عنتر بعد حرب قاسية . ضرب العدو بغير هوادة . قاتل بلا رحمة . كم صاح وهو ينادى زميله عبد المنعم :

ـــ اضرب يا دفعة .. اضرب العدو .. إديله ماترحموهوش .

كلما قاتل بقسوة كان يحس فايزة تبتسم له .. مهرى هو النصر ياعنتر .. غنى فى نفسه لها مواله القديم :

أكل البلح حلو بسّ النخل فى العالى
مش طايله إيدى البلح يا رب كان مالى

الحب .. والحرب .. وجهان لعملة واحدة هى الحرية . إذا كنت تحب فحارب من أجل حبك .. وإذا كنت تحارب فأحب ما تدافع عنه . من قال إنه فى النور وهو يبغض أخاه فهو الآن فى الظلمة . من يحب أخاه يثبت فى النور وليس فى عثرة . وأما من يبغض أخاه فهو فى الظلمة ، وفى الظلمة يسلك ولا يعلم أين يمضى لأن الظلمة أعمت عينه .

* * *

— اسمعى يا أمى .. مستحيل أن يتم هذا الزواج .

— يا ميلة بختى معك .. كل البنات تتزوج فى ستر وسلام إلا أنت .. أنت من ؟

— أنا فايزة التى تحبّ عنتر .. ادعيتم أنه مات فى سيناء ، لكنه عاد بالسلامة .

تبادلت معها الأم نظرة غضب وحزن .

— والفاتحة التى قرأها أبوك مع شيخ البلد .. ؟

— أبى يعرف رأيى .. أنت .. أنت المسئولة .

— يا فضيحتك الناقعة يا أم على . ماذا عملت حتى يرزقنى الله بفتاة مجنونة مثلك .. ؟

نظرت إليها فى تحد .. وهى تعبث فى ضفيرة شعرها الذهبى .

ـ لست مجنونة .. أنا فقط صريحة .. أنا حرة .. أتفهمين ؟ مستحيل أن أتزوج رجلا .. وأنا أحب غيره .

ـ الله يلعن الراديو وأيامه السوداء هو الذى علمك الحب والكلام الفاضى .. والأغانى المائعة التى ترددينها فى الأفراح .

ـ الدنيا تغيرت يا أم على .. فوق .. الحب ليس عاراً .. الحب ..

ـ اخرسى .. قطع لسانك .

شيخ البلد منذ جاء عنتر يريد أن يدبر له أى مصيبة ، حتى يغور ويترك فايزة لابنه . انتهت حرب يا عنتر وبدأت أخرى ، لكن المهم من يضحك أخيرا يا شيخ البلد ؟

ـ اسمع يا عنتر منذ جئت إلى القرية وكل يوم لك مشكلة .

هكذا قال الحاج إبراهيم شيخ البلد وهو يجلس فى مندرة بيته . حوله شيخ الخفر وبعض الأتباع . عنتر برغم إحساسه بالخطر لا يستطيع أن يخفى شعورا بالكراهية والاحتقار ضد شيخ البلد وأعوانه .

ـ أنت يا ولد يا عنتر (واصل عبده أبو سيف العامل الزراعى الذى يعمل فى حقل شيخ البلد) أخذت منى ثلاثة جنيهات منذ أسبوع .

ـ أنا .. يازوج بهانة ؟

ـ عيب يا عنتر .. احفظ لسانك .. (قال شيخ الخفر) .

ـ نعم أخذتها منى لتحضر جوال دقيق من المنصورة لكنك لم تحضر الدقيق و لم ترد النقود .

بدأ الشهود يؤكدون كلامه ويقسمون . نقل بصره بين الكاذبين المكذبين فى حيرة . لم يدر ماذا يصنع ؟ هناك مواقف لا ينفع فيها الكلام . لم يكن من السهل أن ينسى أنه جندى قضى فى الجيش أربع سنوات . تذكر ما فعله يوماً مع أحد الأعداء . وجده جريحا أثناء المعركة وقد فرّ زملاؤه الفئران . طلب منه شربة ماء . اقترب منه يسقيه فى حين كان الغادر يحاول أن يطعنه بخنجر . بسرعة أفرغ طلقات مدفعه كلها فى رأسه . أفاق من خيالاته .. لم يدر ماذا حدث ؟ كان بعض المرتزقة يحاولون أن ينقذوا عنق شيخ البلد من يده .. أخيرا تركه بعد أن بصق عليه .

ـ تشهدون يا بلد .. المجرم .. يريد أن يقتلنى ...

تساءل فى نفسه هل انتهت الحرب حقيقة .. ولِمَ سلم البندقية ؟

على سطح الدار تتذكر أيامها الحلوة مع عنتر . الأوقات الحلوة تمر سريعة .. لكن لحظات الضيق مسامير حارقة . موتًا بطيئًا تمر ساعات

الحزن . أين أيام زمان يا عنتر .. ؟ كثيرا ما ذهبت معه إلى المنصورة ، كانا جارين .. كبر الحب مع الأيام . كان فقيرا .. فايزة كنزه الثمين . حين تركب معه يصيح فى الحصان يعدو بسرعة .. فى حين لا تكف فايزة عن الغناء .. صوتى ليس جميلا لكنى أحب الفرح بالحياة .

ع الزراعية يا رب اقابل حبيبى

كان يصلى من أجل أن يحفظها الرب ويحفظ حبهما . كان يحبها دون أن يعرف للحب معنى .

— ما هو الحب يا عنتر ؟

— الحب .. لست أدرى .. لكنه أعظم حاجة فى الدنيا يا فايزة ، تعرفين حين أراك أريد أن أخطفك وأطير ..

— يا روحى .. تكتم كل هذا فى نفسك وأنت ساكت .. آه لو سمعتك أمى .

— ولِمَ النكد يابنت الحلال ..؟

القرية تغرق فى صمت ، وسواد الليل يغطى كل شىء . نباح بعض الكلاب يعلو من بعيد ، لِمَ خلق الله الكلاب ؟ فايزة ما زالت ترقب النجوم المبعثرة فى سماء سوداء ، قطرات خفيفة من الندى بللت القش

والدريس : برودة الجّو زادت من قـدر الإحساس بالوحـدة . الانتظار مر . متى تأتى يا عنتر ؟ فايزة فتاة فقيرة لكن لِمَ أراد شيخ البلد أن يخطبها لابنه . القرية مليئة بالفتيات . لِمَ لا تحلو الفتاة في عين الناس إلا حينما يعلمون أنها تحب ؟ كل الناس يتمنون الحب .. حتى لو كانوا فى الطريق إلى القبر ، ومع هذا إذا عرفوا أن هناك حبًّا أبيض ينمو فى الضوء يحاربونه . كل الناس ترى الحمام لأنه يطير فى النور ، لكن أحدًا لا يرى الخفافيش لأنها تطير فى الظلام .

بين الأمل والألم .. بين الليل والفجر .. زحف حتى وصل إليها فى سكون حتى لا يشعر به أحد .

ـ عنتر يا حبيبى .

أحس وهو يحتضنها للمرة الأولى أنه يولد من جديد .. أن خلاياه تتفتح .. أن قامته تطول حتى تصل إلى السماء . عنتر انتهت المعركة فى أرض القمر ، لكنها يجب أن تستمر من أجل القمر نفسه .. فى كل مكان . كلب يعوى وضوء القمر يظهر من بعيد .

ـ تعبت يا عنتر .. تحديت الجميع .. من أجلك .

ـ الصبر طيب يا فايزة .

ـ .....

بدأت أسارير وجهها تشرق فى الظلام .. اهتزت من الشوق والشفقة .. تحيرت ماذا تقول .. لِمَ ننسى كل الكلام حين نرى وجه الحبيب . فى البعد نتذكر ألف قضية وقضية وحين نلتقى به نبحث عن أىّ كلام فلا نجد .

ـــ تثقين فىَّ يا فايزة ؟ .

ـــ تعرف إجابة هذا السؤال .

ـــ سوف نتزوج .. لن يفرقنا أحد .

مر المسحراتى فشق صوته الصمت والظلام .. يانايم وحّـد الدايم . أخذ يدق دقات منتظمة على طبلة يحملها ويسير وحده فى الظلام . القرية نائمة وهو يحاول أن يوقظها لتبدأ يوما جديداً .

نظرت إليه ساهمة .. لم تدر كم طال الصمت بينهما . نظرت إليه فوجدته يبكى !! عنتر يبكى .. أول مرة ترى رجلا يبكى .. صعب على الرجل أن يبكى . الرجل لا يقدر .. ولا يحبّ أن يظهر ضعفه . صعب أن يبكى رجل أمام رجل .. الرجل لا يبكى إلاّ بين يدى امرأة يحبها . ضمته كما تحنو الأم على ولدها . الحبيبة الحقيقية أم . الرجل مهما كبر فى حاجة إلى أم دائمة .. تشد حيله إذا تعب ، تقف بجواره حين يتخلى الأصدقاء عنه ، تنتزعه من أشواك الألم ، تزرع فى دنياه

الأمل . تسعده وتريه الليالى الملاح . تريحه وتستريح معه . يتسع صدرها له حين يضيق به العالم . حين يسقط المطر يجرى فى النهر المقدس .. فى النهر تسير المياه .. تلتقى الشفاه .. تخضر الحياة .

حصان عنتر يقف وحيداً أمام الدار ، تأهّب ليوم جديد . حصان أصيل هو،لا يتعب ولا يكف عن العمل . العربة أمام الحصان ، يداها مرتفعة إلى السماء تشكو طول الليل . أخذ يديها فى يديه وقال فى ثقة :

ـ فايزة .. يجب أن نتفق .

ـ على ماذا ؟

ـ على أن نتزوج .

ـ كيف ؟

ـ كما تريدين .

خيوط الفجر تؤذن بالظهور وحصان عنتر يصهل صهيلا يشق سكون الليل .

ـ تريد أن نهرب .. مع الخفافيش ؟

ـ سنطير مع الحمام .. فى النهار !!

فبراير ١٩٨١

الفجر

ـ ما أخبار الأمن فى البلد يا شيخ الخفر ؟

أحس درويش الخفير شيئاً من الأهمية والفخر ، حين ناداه صابر أفندى بشيخ الخفراء وهو مجرد خفير لا هنا ولا هناك . تصور نفسه رجلاً مهماً .. تلمس البندقية على كتفه الشمال ، أخذ يعبث فى شاربه المتهدل وهو يحملق فى الجالسين أمام دكان عطوة الزفتاوى .

ـ هى الحكاية فوضى .. هذه أسرار يا جماعة .

ـ أسرار .. ؟ من الذى يحفظ السر فى هذه الأيام السوداء ياعم ؟

هكذا قال الزفتاوى ، كان يجلس مع شلة من الرجال أمام دكان تنيره لمبة جاز نمرة عشرة ، وابنه الصغير رزق ينوب عنه فى العمل .

ـ اقعد اشرب شاى .. ونحن نقول لك الأخبار .

قال هذا عطية فراش المدرسة الابتدائية ، وهو يحرك براد الشاى وسط منقد نار الفحم . المياه يصعد منها البخار .. المياه فى البراد تغلى النار من تحتها حامية ، الضوء خافت فى الدكان .

ـ أين الشاى والسكر ياعم عطوة ... ؟

نقل درويش نظره بين براد الشاى الذى يغلى ، والجوزة المنتظرة فى صمت . منّى نفسه بسهرة مجانية ، فزبائن الزفتاوى يشتركون كل ليلة فى شراء الشاى والسكر والمعسل .. أحيانا حاف ، وأحيانا بتعميرة حشيش تمام التمام.صراع يدور فى داخله بين اصطناع الهيبة المتكبرة والرغبة فى شرب الشاى والجوزة مجاناً . فى لحظة حسم الموقف وتنازل عنْ الوقار أمام إغراء الجلسة . كان الجميع منهمكين . كل له دور مثل خلية النحل ، تنوعت الأدوار بين صنع الشاى .. غسل الأكواب .. إعداد الجوزة .. تجهيز المعسل .. تقطيع الحشيش .. إحضار النار على قطعة فخار . شيئا نسيه الجميع .. إنه درويش . حشر نفسه على حافة الحصيرة وهو يلم أطراف ثوبه .

نظر إليه عوض الحلاق فى برود ، وهو يجرّب ماء الجوزة ، وقال فى شماتة :

ــ ما كان من الأول ... يارجل يادون .

ــ على مقربة من الدكان فى ناحية مقابلة كانت جاموسة الزفتاوى تقف فى هدوء تأكل الحشيش والخضرة .. قريبة من الشلة كأنها واحدة منهم . دار الزفتاوى ضيقة . لكن الزفتاوى لا يترك الجاموسة أمامها لهذا السبب ، وإنما يربطها بجوار الدكان حتى يشحذ

لها من كل قادم من الحقل بعض الخضرة .. شحاذة بالإكراه .

ـــ خذ ياعم سيجارة كليوباترة معتبرة .. وولع حتى يحلو الكلام .

نظر إليه صابر المدرس الابتدائى فى خبث،وهو يشعل له السيجارة .

ـــ يدوم العز يا صابر أفندى .

ـــ بلا عز .. بلا وز .. انطق وخلصنا . ما حكاية الولد فكرى ؟

عاودته آلام كبرياء متوهم ، لكنه حرص على الاستمرار فى أن يظهر لهم أهميته .. ومقامه الكبير .

ـــ اسمع يا صابر أفندى .. اسمعوا يا رجال .. كل إشارة تأتى إلى التليفون لا تصل إلى العمدة إلا عن طريقى .. طريقى أنا . دق بيده اليمنى على صدره وأسند البندقية على حجره ـــ حتى عامل التليفون نفسه لا يستطيع أن يبلّغ أى إشارة للعمدة أو الشيخ إلا عن طريقى .. طريقى أنا ..

ـــ عجبى .. !

قذف عطية بهذه الكلمة وهو لا ينقل بصره عن براد الشاى .

أصبحت المياه سوداء فى البراد .. ورق الشاى صبغ المياه البيضاء ... صارت سوداء .. سوداء كحل . النار ما زالت مشتعلة . عطية بدأ يصب الشاى . دارت الأكواب . ارتفع الدخان .. دخان الجوزة يتلّوى مثل الثعبان .

ــ الإشارة تقول : مطلوب إحضار المدعو فكرى صالح إلى مقر نقطة بدواى ساعة تاريخه وفى حالة عدم وجود المذكور يرسل ولى أمره . ونُفاد اليوم بالمطلوب .

درويش يحرك لسانه على شفته السفلى . اختلط طعم الشاى بدخان الجوزة . المياه فى الجوزة تكركر .. تستغيث من كثافة الدخان .. دارت الجوزة .

ــ مساء الخير يا صابر أفندى .. ولّع يا أمير .

ــ يا سلام يا ولد يا عوض .. تعميرة عظمة .

ــ عيب يا صابر أفندى .. إحنا ناس على قدنا ، لكن نقدر .

ــ يا ولد يا قادر ! .

دارت الجوزة . انتشرت رائحة الدخان . انتشت الرءوس . ما زال درويش ينتظر دوره . نسوه أو تناسوه .. أشرأب برقبته . متى يأتى عليه الدور حتى يأخذ نفساً عميقا يملأ صدره ، لن يطرد

الدخان مثل الولد عوض ، سوف يحبسه داخل صدره حتى ينتشى .. حتى ينسى .. ينسى ماذا .. ينسى أى شىء ... !؟

ــ ولع يا غشيم .

فاجأه عوض بغابة الجوزة فجأة فقطع خيوط أوهامه .

ــ سمعت أن الولد فكرى سرق كيسا من القطن من غيط شيخ البلد . أيوه ولد حرامى يعنى .. شيخ البلد كلم الشاويش بنفسه ، وطلب منه تأديب فكرى وحبسه فى النقطة .

الجاموسة تنظر إلى الجالسين .. تأكل الحشيش والخضرة فى صمت . الضوء الخابى.. ضوء لمبة الغاز.. التف حوله الفراش والباعوض .

ــ لا ياعم عوض . الحكاية ليست هكذا . فكرى هذا ولد عينه فارغة ــ استطرد عطية الفراش وهو يقسم المعسل ــ أى والله .. ولد قليل الأدب .

ــ كيف ؟

ــ إنه ولد خباص . لقد رأيته فى الأسبوع الماضى يخرج فى نصف الليل والدنيا سوداء كحل من بيت الشيخ عبد الله المأذون .

ــ أكان مع امرأته أم مع ابنته .. ؟

ــ سبحان علام الغيوب ..

ــ يا ساتر يا رب .

تمتم الزفتاوى كأنما يكشف سرًا .

ــ اسمعوا يا شباب أنتم صغار .. اسألوا العارفين .. أيوه ، العِرق دسّاس يا ولد يا عطية ، أيوه صالح طول عمره رجل خبّاص .. ذيله وسخ .

كلب ينبح من بعيد .. صوته يقوى .. يقترب .. يبدو مثل كلاب الغجر . الغجر وكلابهم عالم متوحش ، لا يرحمون من يقع فى أيديهم حتى لو أحسن إليهم . فى الصيف الماضى جاء الغجر إلى كفر بدواى ، معهم أغنام وماعز وحمير وكلاب . شحذوا من كل دار ، ورعوا فى كل حقل ، وشربوا من ماء الترعة . أقاموا هم وحيواناتهم شهرًا بطوله . فى آخر ليلة سرقوا شيئا من كل مكان أكلوا منه . هربوا فى الليل واختفوا مع الفجر .

ــ لا ياعم عطوة يازفتاوى .. المعلومات التى عندى هى الصحيحة .. إذا نملة دبت فى البلد فأنا أعرف أين تذهب .

ــ كيف يا صابر أفندى ؟

ــ الولد فكرى هارب من الجيش ، جاءته ثلاث استدعاءات .

أبوه راجل مبسوط كان يرشو الشاويش ويكتب فى الطلب .. لم يُستدل على عنوان المذكور .. لكن .

— لكن إيه ؟

— واحد ابن حلال .

— ابن حلال يا صابر ؟

— أيوه فاعل خير يعنى .. لا يرضى عن الحال المائل ، كتب عريظة فى الولد فكرى وأرسلها إلى المأمور ، وكتب أنه متهرب من الخدمة العسكرية وهذه خيانة عظمى .

— يعنى إيه خيانة عظمى يا صابر أفندى ؟

سأل درويش فى براءة وهو ينظر إلى ضوء اللمبة الذى بدأ يشحب قليلا .. قليلا .

— أمثالك يا حيوان كان يجب أن يجلس مع هذه الجاموسة.أشار إليها بسبابة يده اليمنى . وليس مع المتعلمين أمثالنا — حرك يده فى عصبية ولمع فى إصبعه خاتم مزيف .

احترق المعسل فى الحجر . علت سحب الدخان . الليل يزحف بطيئًا ويلف القرية .

— على كل .. الولد فكرى ولد فاجر .. والحجر الدائر لابد أن

يكسر .

علق عطية الفراش،فى حين أردف الزفتاوى قائلا :

ــ أصله مثل أبيه ، فى شبابه كان يملأ البلد كلها فضائح والكل يخشى أن يدخل بيته .

ــ ابن الوز عوام يا عم عطوة . قال عوض .

ــ يا سلام يا جدعان .. !

نطق درويش كالمذعور ، وصاح فيه صابر بضيق :

ــ حينما يتحدث الكبار يجب أن يسكت الصغار .

ــ لم يعد أحد يعرف من الصغير ومن الكبير .. النيا أصبحت فوضى يابلد .

رد درويش فى هدوء وتحدًّ . ظهر كلب فجأة يطارد قطة . القطة تجرى .. تموء .. لكن الكلب يعدو خلفها . لم تفعل القطة أى شيء ، لكن الكلب مُصر على أن يطاردها . لم يلتفت أحد إلى المنظر . الجوزة تلف .

ــ مساء النجف يا صابر أفندى .. ولع وروق دمك .

أعطاه عوض غابة الجوزة فى حين أخذ يغنى بصوت مجروح :

جـوزة مـن الهنـد ومـركّب عـليها غـاب
أنـا خـدت منها نـفس ، العقـل منـى غـاب
يـا رب توبـة نصوحـة يـا رب يـا تّـواب

أيوه ياعم .. الأسطى عوض وصل .

ـ طيب اسكت يا عطية أحسن أجيب لك الموس .

ـ يارجل يا مشط .

ها .. ها .. هاها .. هاها .. هىء .. هىء .. ضحك متنوع الإيقاع .

أخذ صابر نفسًا عميقاً وحبس عليه برشفة من الشاى.نظر إلى الزفتاوى قائلا :

ـ حكاية الولد ابن صالح هذه أكيد وراءها سر .

ـ أكيد يا حبيبى .. أيوه إنه ولد خباص .. وأبوه أيضًا رجل مفلوت .. وأمه امرأة مايسة ، إنه من عائلة كلها فضائح .

ـ الذين بيوتهم من زجاج ياعم عطوة .

لم يكمل درويش كلامه لأن الزفتاوى صاح فيه :

ـ كيف تفهم الحمير فى شرب الزنجبيل ؟

عزّت على درويش نفسه فانسحب وجلس بجوار الجاموسة ،

ضوء اللمبة يزداد شحوباً . بدأ يشم هواء نقيًا . الجاموسة تنظر إليه في صمت رحيم . تمنى أن يكلمها .. لكن ما فائدة الكلام .. إن صمت الجاموسة أفضل من كلام شلة الزفتاوى . ليت الله خلق البشر بلا ألسنة .. سكاكين . شقّ صمت الليل صوت الكروان يغرد فى الفضاء ، الملك لك لك يا صاحب الملك .

ظهر الولد فكرى فجأة كأنما انشقت عنه الأرض ، ابتسم درويش فى داخله . الشاب يبدو مشرق الوجه : سلام عليكم يارجال — مضى نحو الدكان ولم يلتفت إلى الحاضرين — هات بقرش نعناع يا رزق .

برود مالح يغطى وجوه آكلى لحم البشر حيًا . قال الزفتاوى فى دهشة مصطنعة :

— مَنْ ... ؟ فكرى .. ابن صالح حبيبى .. أهلا يا ابنى ، تعال .. تعال سلم ، أبوك حبيبى .. وحبيب أبيك حبيبك .

— أهلا يا عم عطوة ..

صافح الجميع و لم يجلس . عاد إلى الشلة درويش ووقف بجواره .

— أين كنت اليوم يا فكرى ؟

تساءل عطية فى برود .

ـــ الحكاية ياعم عطية إن البطاقة الشخصية ضاعت منى وأنا مسافر إلى المنصورة منذ شهر . واحد ابن حلال وجدها فأرسلها إلى النقطة ، واستدعونى اليوم لاستلامها .

ـــ شيء غريب .

نطق صابر بهذه العبارة فى دهشة .

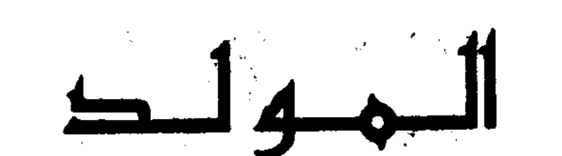
ـــ ما غريب إلا الشيطان يا صابر أفندى .

رد درويش فى شماتة .. وضع يده فى يد فكرى ، قائلا :

ـــ تعال يا ابنى أوصلك داركم .

كانت الجاموسة ترقب الموقف فى هدوء . أضاء رزق شمعة بعد أن نفد الجاز من اللمبة وانطفأت . لم يخطر على بال فكرى شيء مما حدث . مشى درويش بجواره فى صمت . خشى أن يقول شيئاً . تمنى أن يحدّثه لكن الكلام مات.جف حلقه . حاول أن يجد إجابة لتساؤل ألح عليه : هل رحل الغجر حقيقة عن بلدنا !!

مارس ١٩٨١


المولد

أفكر جيدا فى الانتحار .

ـــ هل الموت يحل مشكلة ؟

ـــ المهم أن تضع بإرادتك نهاية لحياة سخيفة لا تريدها .

ـــ وبعد هذا ؟

ـــ تسألنى عمّا بعد يا على وأنا لا أعرف ما قبل ؟

ـــ جرب مرة أخيرة يا حسين .

ـــ لا فائدة .. أمى سبب همى .

ـــ قد تكون معذورة .

ـــ وقد تكون مذنبة .

سكت عاجزًا عن مواصلة الحوار .. نظر إلى صديقه . هدوء عنيد يسيطر عليه.مختلفان فى الطباع والملامح .. لكن الفقر والضياع جمعا بينهما . على ابن سوق لا يستقر على عمل ، ما دام للإنسان يد وعقل فيستطيع أن يفعل أى شىء .. المهم المكسب . يساوى قرشا من معه قرش ، والذى ليس معه شىء لا يساوى شيئاً.حسين شاب هادئ عمل صبى بقال .. صبى حلاق .. صبى مكوجى .. أخيرًا

رضى بأن يحترف الخياطة . ترزى بلدى.. مهنة نظيفة .رضى بالغُلب لكن الغلب لم يرض به . الناس بدأت تهجر الملابس البلدية . فكر فى أن يجارى الجو ويعمل ترزيًا أفرنجيًا . على أوحى له بفكرة فجّرت فى نفسه الطموح والعذاب .. صراع يعيشه بين الأمل والألم .. بين الرغبة والعجز .

ــ اسمع يا حسين .. بلا وجع قلب ، تعال نسافر إلى بلد عربى ، سنتان من الكفاح ونعود لنفتح محل تجارة « بوتيك على وحسين » .. نعم لن نعمل إلا فى المستورد .. كفاية غمّ .. يا عم .

صخرة تهدد سفينة الأحلام . ذهب يستخرج شهادة ميلاد فلم يجد اسمه مدونًا فى الدفتر . ظن الأمر مصادفة . شيئاً فشيئاً بدأ الشك .. ميلاد بلا شهادة هل يمكن أن يكون هذا صحيحا .. ؟ الشهادة بدونها لا تكون.اسمه سقط من دفتر الكون .

ــ أين شهادة ميلادى يا أمى ؟

ــ لا أعرف .

ــ أين ولدت ؟

ــ هنا .. فى حِمى السيدة الطاهرة .

ــ والتاريخ ؟

ـــ لا أذكر .

حسين يذكر جيدًا أن موظف السجل المدنى أخذ خمسة وعشرين قرشا وبحث فى الدفتر كله . قال له فى خبث :

ـــ يبدو أنك من سواقط القيد .

ـــ ما معنى هذا ؟

ـــ اسأل أهلك .

لحظات مُرَّة قضاها حين حاول أن يسأل أمه التى يعيش معها فى عشة على السطوح فى حارة الخضيرى بحى السيدة زينب . تفيدة بائعة الخضر، كل الحارة تعرفها جيداً .. كل بيت أكل من يدها .. لكن تفيدة كانت بالنسبة لوحيدها صندوقاً مغلقًا .

ـــ أبوك مات .. إياك أن تسألنى عنه مرة أخرى .

ـــ فى الخامسة من عمره بريئًا كان ، يريد أن يعرف .

ـــ ماذا كان يعمل ؟

ـــ أبوك كلب ومات ، هذا كل شىء .

منذ طفولته يدرك بالحس الفطرى أن الأب مصدر شقاء أمه ، من يومها كفّ عن السؤال . الرغبة إذا لم تخرج تمد جذورا شيطانية فى الرأس . أصبحت عادة أن يكلم نفسه كثيرا . برغم الحيرة حرص على

رضاء أمه كل عالمه . إحساس بالمرارة يملأ قلبه ، هل يمكن أن يكون وحده الضائع فى حى السيدة .. رضى بالفقر لكن القدر أضاف إليه الشك ، من السهل أن تشك فى أى شىء فى الوجود ، لكن كيف يتحقق الوجود نفسه إذا شك الإنسان فى ذاته . مفتاح السر فى يد الأم ، يبدو أنها قذفته فى بئر مسكونة بالجن .

ـــ فى حياة أمى سر . مأساة ، لكن أنا .. أنا ما ذنبى . الآباء يخطئون والأبناء يدفعون الثمن .. لماذا ؟ .. قل يا على أنت صديقى ؟

ـــ تشغل نفسك بأسئلة صعبة يا حسين ؟

روابط خفية تجمع بين البشر على ولد عملى ما يريده يفعله ، حتى .. لو دخل السجن ، شعاره :

وما نيل المطالب بالتمنى　　　ولكن تؤخذ الدنيا غِلابا

حسين ولد هادئ .. خجول يفكر فى كل شىء ألف مرة ومرة ، لسان حاله .. الصبر مفتاح الفرج .

ـــ صبر إيه ياعم حسين .. الصبر حرق الدكان .

ـــ تصور يا على ؟

ـــ ماذا ؟

— لو أخذت شيئا من جنونك .. وأخذت شيئا من هدوئى .

— لا ياعم .. أنا مستريح بجنونى .. لو لم أكن مجنوناً لتمنيت أن أكون مجنونًا .

على يقول عن نفسه إنه مجنون ، وهو فى نظرى سيد العاقلين ، إنه النموذج المناسب لهذا الزمن النحس .. الذى لا يكون له ظهر يسنده ، يجب أن يكون له ذراع قوية ولسان طويل . البقاء للأقوى هكذا فعل قابيل . اليهود صلبت المسيح لأنه يقول إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . اليوم سأنفذ جنونى يا صديقى .

— تعال نزور السيدة .

— لِمَ ؟

— بركاتها كثيرة .

— حدد ؟

— لا تقاطع .. الليلة الليلة الكبيرة .

— ياشقى .

يتحركان وسط الميدان بصعوبة . مدد يا سيدة أحبابك كلهم تائهون فى الزحام . اختلطت المواصلات بالبشر ، تداخل البيع مع الشراء ، تشابك النور فى الظلام . مولد . التعب يطفح على الوجوه

المجهدة .. يا سيدة . باب المسجد لا تعرف الداخل فيه من الخارج. المئذنة تتطاير منها ألوان كهربية ملونة .. أصوات الذكر والنشيد . حاول حسين أن يدخل المسجد . تمنى أن يبكى أمام الضريح حتى يستريح ، يغسل الصدر المهموم . لكن عليًّا جذبه بعيدًا .. اصطدما بشحاذ كفيف كان يجلس تحت شباك الضريح .

ـ مدد يا سيدة .. يا أخت الحسين يا أهل البيت مدد .. كراماتك يا سيدة ياطاهرة .. مدد على طول المدد .

هكذا صاح مجذوب بلحية اشتعل الشيب فيها ، يلبس ثوبًا مرقعًا ، يحمل مبخرة ، فى صدره مجموعة من السبح ، يحمل عصاء يهدد بها من يقف فى طريقه :

ـ بركاتك يا طاهرة .. طهرى المكان يا بنت سيد ولد عدنان .. النبى قبل الهدية .. لِمَ لا تقبلين التوبة .. كل شىء يتغير إلا حبى ياسيدة .. مدد .. مدد .

اصطدم به حسين .. حاول المجذوب أن يضربه وبعد أن همّ تراجع .. وقال دون أن يلتفت :

ـ ذيل الكلب ماينعدل وإن علّقت فيه قالب .

حيرته كلمات المجذوب ، الزحام خانق ..

ــ عاوز إيه من الزحمة يا حسين ؟

ــ أنسى الهم .

ــ لم تقل من الأول .

دخلا شارع السد ، مشيا بصعوبة . رغم الزحام كان حسين يشعر بأن عيون البشر تبحث عن شيء لا تجده . يا عالم أريد رغيفًا من الخبز وبسمة عصفورة .. عطشان يا سيدة دلّينى على السبيل . اصطدم بحمار يجر عربة فصاح فيه صاحبها :

ــ فَتح يا غشيم .

بحثا عن مكان على الرصيف بجوار عبده بائع الكفتة . اختلطت رائحة الشواء بأصوات الذّكر وصيحات الزحام . كل الأماكن مزدحمة .. مولد يا دنيا . !!

ــ الكفتة والبيرة يا عبده .

ــ بيرة فى ليلة المولد ياعلى .

ــ يا سيدى .. قل ياباسط .

عبده لا يسمع أي نداء ، فهو يعمل بطريقة اخدم نفسك خاصة فى هذه الليالى المفترجة .

ــ كله فى الليل .

جلس حسين مهمومًا يبتلع ساندوتش الكفتة بالبيرة .

على يتأمل الزحام فى سخط .

ـــ عالم فاضية .. قلبها خال .. لمَ جاءوا من بلادهم ؟

ـــ ....

ـــ أغبياء .. لو بيدى لأغرقتهم فى النيل .

أحس بحصوات رمل فى الرغيف .. بصق فى قرف :

ـــ الله يخرب بيتك يا عبده عيش بالرمل ، اعمله من الطين أحسن .

حصوة الملح تذوب فى بحر الهم . هموم حسين تحجب عنه الرؤية . يرى العالم من يرى نفسه . الكتل البشرية لا تكف عن المسير . السير كله إلى الميدان ، الميدان مزدحم بالحيارى والسكارى . صاح عبده :

ـــ كله فى الليل .. يا أبو الغلابة ياليل .

تبادل على وحسين نظرة ساهمة ، على أسمر مثل طين النيل ، وحسين شاحب أقرب إلى صفرة الكركم . الفقر والحرمان يجمعان بينهما منذ عشر سنوات . فى النهار كل واحد له عالم ، أما فى الليل فلا يفترقان إلا للنوم . عجيب أن يختفى الحب فى النهار ولا يظهر إلا فى

الليل .

ــ جئت يابنى ؟

ــ .....

تفيدة امرأة متآكلة ، شلتها برودة الرصيف . عشرين عاما تبيع الخضر حتى انهد حيلها . شاخت قبل الأوان . الحمد لله حسين صار رجلا .. سوف يكون ابناً بارّا . شبعت من النوم والأرق . ما زالت تنتظره كالعادة .

هذه المرأة تستحق الشفقة .. لكنى أحتقرها . لقد فاض الكيل . الخيط الوحيد الذى يوصل إلى الحقيقة أو الموت هو أنت . إما أنا أو أنت .. أنت يا تفيدة .

ــ تعشيت يا بنى ؟

ــ ......

ارتعشت أنفاسه ، ينظر إليها فى سخط ، أشلاء جسد على سرير من الجريد ، غطت نصفها الأسفل ببطانية سوداء . شىء وحيد يدل على أنها ما زالت على قيد الحياة ، عينان تلمعان فى ضوء شاحب .

ــ الليلة ليلة المولد ، ماشاء الله .. أكيد كنت عندها عند السيدة الطاهرة .

كوّر يده اليمنى فى غضب ، وضرب الحائط فاهتزت العشة واضطربت الأم .

ـــ اسمعى يا تفيدة .

ـــ أحست بخوف .. كانت ترتعش وهى تقول :

ـــ أ .. أنا يا حسين .. ما .. ماذا جرى .. الكل يقولون يا أم حسـ .. حسين .. وأنت تقول ..

ـــ أشك فى أنك أمى .

مسامير من الحديد تكوى القلب العجوز . الدموع تحجرت فى العيون الفقيرة .

ـــ حسين يا ابنى ..

ـــ لست ابنك .

انهالت تلطم خديها .. تبكى عمرًا ضاع . شريط لمبة الغاز يحترق . فأر كبير يجرى فى العشة باطمئنان كأنه واحد من السكان .. لا يبالى بما يحدث .

ـــ لن يطلع الصبح إلا إذا عرفت الحقيقة .

ـــ ......

انتفض واقفاً من كنبة ينام عليها ، وقف فى تحدٍّ أمامها . أمسك

الكتف الهزيلة . أخذ يهزها ،

ــ لابد أن تنطقى ، لولا العِشرة لقتلتك .. اسمعى لن يؤثر فىّ البكاء ..

لم يبق فى العين دموع .. اختلطت الرؤية .. ضوء اللمبة يخبو ، الفأر يجرى فى العشة .

ــ كلمة واحدة.. إما أن أعرف الحقيقة أو لن ترى وجهى بعد الآن .

سامحك الله يا حسين ؟ لن أقول شيئا . قلبى يحدثنى أنك لن تغفر لأمك . ربيتك لتكون رجلا أفرح به لكن النحس يطاردنى . شيء ما خطأ جعل الحياة كريهة . العفونة .. تسمم الهواء الذى نشمه ... !

ــ ياعم سالم عاوز بنت تخدمنى . أنا موظف كبير ومبسوط .

ــ لِمَ لا تتزوج يابنى ؟

ــ بعد أن أكوِّن نفسى ، ثم ماذا أخذ الذين تزوجوا .. العازب سلطان زمانه .

عشرون عامًا مضت ، خرجت من القرية للمرة الأولى والأخيرة مع شاكر أفندى الموظف فى أحد البنوك . مات أبى وكنا تسعة من العيال . فرحت أمى بالجنيهات الخمسة ، بالإضافة إلى أننى سوف

أريحها من همّ الصرف علىّ . ليتك ما وافقت . الأم مصطبة الذل .
قروية ساذجة نزلت القاهرة لأول مرة . مصر أم الدنيا يا تفيدة .
بدأت أتعرف على عالم جديد .. الراديو (يا امه القمر ع الباب)
الغناء للحب عينى عينك .. أو كما يقولون فى بلدنا على عينك
ياتاجر . بدأت آكل اللحم والسمك المشوى .. عرفت الشوارع
التى لا تهدأ ولا تنام .. أرى سادة البيوت موظفين آخر عظمة
يلبسون البدل المكوية .. والسيدات ياعينى علينا يابنات الأرياف ..
السيدات شعرهن مقصوص ، الوجه يزينه الكحل والبودرة
والروج . الروائح تسبق خطواتهن ، الملابس — تعالى لى يا أمى —
محزّقة تبرز مفاتن أجسادهن الطرية . تعاملت مع قاع المدينة .. الجزار
يبيع لحوم البهائم ويأكل لحم البشر ، البقال يبيع كل شىء بالميزان ..
كأنه يبيع الذهب . صبى المكوجى الذى لابد أن يأخذ بقشيشاً ،
بائع الخضر والفاكهة يبيع البائت مع الصابح والفاسد مع السليم .
تعرفت على البواب وبائع الجرائد . كل هذا كوم يا حسين وفاطمة
الخادمة العجوز التى تعمل معى فى نفس العمارة كوم آخر . تعلمنى
أشياء لها قلبى الأخضر .. فتحت عينى بسكين !!

— لازم يا تفيدة تهتمى بنفسك ، خذى من فلوس المصروف

بحساب .. بحساب فاهمة ، هاتى فستانًا يليق بالبندر ، وارمى جلباب القرية .. نظّفى نفسك يابنت .

ــ أنا شغّالة يا خالة فاطمة .

ــ هى الشغّالة كفرت .. كلنا أولاد تسعة ياغبية .

ــ يعنى إيه ؟

ــ سيدك راجل مقتدر .. وجايز .

ــ جايز إيه ؟

ــ طيب والنبى أنا أحلى من ستى ، لو كان سيدى عازبًا ؟

نعيش فى شقة واحدة . يعمل كثيرًا طول النهار ، يعود مفجوعًا ، يأكل كثيراً وينام كثيرًا ، يسهر فى الخارج إلى وقت متأخر . كنت أغلق باب حجرة الصالون عندما أنام بالترباس . زجرنى بشدة لأنه أراد أن يتعشى متأخرًا . هددنى بأن يعيدنى إلى القرية .

ــ أعطى أهلك نقودًا من عرق جبينى لكى تريحينى ، إذا كنت عاجزة ، عودى إلى أهلك .

الفقر وصمة عار ، لِم تركتنا فقراء يا أبى ؟ . الفقراء أمثالنا ياحسين ساقطون من حساب الزمن . بين الخوف والرجاء ارتعشت

إرادتى . خفت أن أحرم من النعيم وأعود للذل . كنت فى الخامسة عشرة . بدأ يقلل من السهر فى الخارج ، لأنه كان مشغولا بدفاتر وحسابات البنك .. يسهر حتى وقت متأخر كل ليلة ، القلم فى يده اليمين،وسيجارة لا تنطفئ فى يده الشمال .

ـــ ابقى معى لن أنام قبل أن أنهى هذه الكشوف .. قد أحتاج إلى شاى أو قهوة .

على الأرض نمت من التعب والبرودة . ملت على الحائط . بين اليقظة والنوم أحسست براحة حملنى دون أن أدرى . أول مرة أنام على سرير .. ومرتبة . كان آخر عهدى بكليم حجرة الصالون.بدأ يهتم بى أكثر ويعاملنى بلطف . اكتشفت فى الرجل جانبا آخر . لم أعرف أنى أسبح ضد التيار . أصبح الليل يمثل شوقًا جارفًا . الحمامة الصغيرة نامت فى عش الغراب .

ـــ لا تغيرى ملابسك عند الخروج حتى لا يقول الناس شيئا . فى البيت افعلى ماتريدين .

ـــ أمرك يابيه .

تأخر ليلة فى الخارج ،اللحظات تمر بطيئة ، كنت خادمة .. لكن اليوم من أنا ؟ هل يمكن أن أكون زوجة .. أحسست بالذعر

والخوف .. ارتعشت .. بكيت .

— كنت خائفة ؟

— نعم ..

— لِمَ ؟

— ....

— لن أتأخر عليك بعد اليوم ياتوتو .

— لست خائفة من الوحدة ياشاكر .. أنا خائفة من المستقبل .

— لا تخافى .. أنت عزيزة علىّ .. لن أتخلى عنك .

— أتحلف على ذلك .

— لا تكونى فلاحة .

ذابت لحظات السعادة المسروقة . حدث شرخ فى عقلى حين بدأتَ تنمو فى رحمى يا حسين . صارحته بالحقيقة المرة .

— واحدة من اثنتين .. إما أن تسقطى هذا الحمل أو تتركى بيتى ؟

ركعت .. قبّلت الأرض تحت قدميه ، اسودت الدنيا فى عينى . لعنت الحرمان . فكرت مثلك يا حسين أن أذهب إلى أمى وأقتلها ، ذكرتنى بشبابى المر ياولدى . أبوك طلب منى أن .. أسقطك ..

أصررت على أن تبقى .. ثمرة لحظات تمنيت أن تدوم . لم أعرف هل كنت على حق أم لا ؟

ـــ لا تزعلى ياتوتو سوف نتزوج مادام هذا يرضيك.. فقط أعطنى مهلة .. شهرًا واحدًا . اليوم سوف آخذك إلى حلوان .. لكى نتفسح بعيدًا عن الناس .

آخر لقاء معه . تهت فى الزحام .. تركنى .. ضالة .. العار يملأ بطنى . لم أعثر له على مكان . خشيت أن أعود إلى القرية . أن تقول أمى ماتت أفضل ألف مرة من أن يقال عادت تحمل العار .

عشت فى حمى السيدة الطاهرة .. السيدة زينب ، عطف على صاحب هذا البيت . بنى من أجلى هذه العشة . طلب منى أن أساعد زوجته ، مستحيل أن ألدغ مرتين . تاجرت بقروش قليلة فى الخضر على الرصيف .. حتى أعيش وأربيك .

يوم مولدك تعمدت ألا أسجل لك شهادة ميلاد .. خشيت أن يسألونى من أبوك النذل . سوف أريحك من طلب المدرسة .. والجيش . أصبحت من سواقط القيد يا حسين .. غصبًا عنى . كنت وحيدة إلا من الفقر والحزن . هذا ما وصلت أنا وأنت إليه .. ليس بيدى يا حبيبى .

الحزينة مُصرة على أن تحمى ابنها ، أحياناً يكون العلم بالحقيقة أمرّ منها .

ــ نفد صبرى .. لم تنطفى يا امرأة .

ــ عيب يا حسين .. قل يا أمى ..

ــ ليس لى أب .. فلمَ يكون لى أم ؟

ــ هل قصرت فى حقك يا حبيبى ؟

نزلت دموع من عينها .. تناثرت البطانية عن جسدها . الفأر يجرى فى الحجرة . ضوء اللمبة يزداد شحوبًا . امتلأ قلبه غيظًا . نظر فى عينيها فإذا صمت عنيد . راودته فكرة أن يخنقها . أدرك أن راحته فى .. الموت .. . لا شىء يريحنا من حياة الذل غير الموت .. تحير للحظة .. مَنْ يقتل ؟ أيقتلها أم يقتل نفسه ؟ تراءى له صديقه على ساخرًا :

ــ حسين لم تشغلك نفسك بأسئلة صعبة ؟

حسم الموقف .. قرر أن يجرى إلى الأبد . أرادت الأم أن تلحق به . فى شدة الخوف نسيت أنها عاجزة . أخذت ترتجف . لم تعد تراه .. أقدامه تبتلع الطريق إلى المجهول . أخذت تزحف فى الظلام .. وهى تصيح : حسين .. تعال .. أنا .. أنا أمك ..

أكتوبر ١٩٨٠

امتداد الظل

من النافذة أرقب العالم ، أرى الدنيا . هذه الشجرة أمام بيتنا لَمَ لا تؤثر فيها الريح .. ولا الصيف أو الشتاء ؟ الريح كثيراً ما تهب من كل اتجاه فى الليل أو النهار . الريح تهز الشجرة ، لكن الشجرة صلبة . أمى قالت هذه الشجرة من عمرك يا وفاء . أبوك هو الذى زرع هذه الشجرة بنفسه . أصبحت بينى وبين الشجرة ألفة غريبة .. صرنا صديقتين ، حيث أنا وحيدة .. وحيدة فى كل شىء . فى لحظات الضيق أحدّث الشجرة ، أكلمها فى الليل .. فى النهار . شبــاك حجرتى يفتح على أغصانها الخضراء .. حين أكلمها لا أحسب للزمن حسابًا .. الشجرة تذكرنى بالماضى والحاضر .. لكن أين المستقبل وظل الشجرة ينمو بطيئًا ؟ فتاة طيبة أنا .. وأنا أحبك كثيراً يا أمى .. لكن هل تحبيننى حقا ؟ أشك كثيراً فى الناس .. لست متشائمة ولا متفائله . لكنى لا أعرف أحداً ، أمى تحذرنى من الناس ، ومن شرور الناس . الحقيقة الوحيدة فى حياتى هى هذه الشجرة .. لَمَ زرعتها ومضيت يا أبى ؟ أين أنت الآن ، بل أين أنا ؟ أنت بنت .. والبنت لازم تسمع كلام أمها . مات الأب ولا أجد لى أبا سواه !! أصبحت

شاغل أمى الوحيد .. أنت أكبر من أخيك هذا صحيح .. أنت مدّرسة قدّ الدنيا ، وأخوك أصغر منك .. ما زال طالباً يأخـذ مصروفه منك ، لكنه رجل .. ؟ لمَ أتيت بى إلى هذه الحياة يا أمى ؟ هل طلبت منك ذلك ؟ . لحظة لذة أو ضيق عشتها مع أبى وكنت أنا الثمرة المرة . الراديو والتليفزيون والجامعة تعطى مفاتيح ورديـة للحياة .. لكن أنت .. أنت يا أمى تسدّين كل باب مفتوح . تعبت يا أمى .. ما الصواب ؟ ما الخطأ ؟ متى أستريح مما أنا فيه ؟ تعبت يا أمى .. كل يوم يكبر همّى .. وأنت مع كل البشر ضدى .. أنا الوحيدة التى تساعدك . ! أستمع إلى هذيانك .. إلى عقدك . أقف بجوارك عند كل أزمة .. وأنت .. التى تفجعينى فى كل موقف ! أنا المخطئة دائماً — دون حق .. وشريف صاحب أى حق .. لا لشىء إلا لأنه رجل . يا ابنتى .. أخوك رجل .. ربنا يحرسه .. تحمّلى أخاك حتى تتدربى على تعب الزوج فى المستقبل .. يا رب أراك عروسة ! تغير كل العالم إلا نظرتك لى يا أمى .. تدعين أنك تحبيننى .. من الحب ما قتل .. نعم أنت تحجبين عن الشجرة الهواء يا أمى ؟

— آنسة وفاء .

— نعم .

ـــ خدمة بسيطة لو سمحت ؟

ـــ كنت معك طوال اليوم فى المدرسة .

ـــ المدرسة مكان عمل .

ـــ ومحطة الأتوبيس . ؟

ـــ محطة يقف عندها الجميع ؟

ـــ قل وخلّصنى .

ـــ تُحضرين لى غداً ديوان إبراهيم ناجى .. لو سمحت .

ـــ نعم ؟

ـــ مجرد كتاب أستعيره منك .. سمعتك تقولين إنه عندك .

ـــ مدرسة لغة فرنسية تعير ديوان ناجى لمدرس لغة عربية .

ـــ مجرد مصادفة .

ـــ مصادفة .

ـــ ورب مصادفة .. ؟

ـــ لا أدرى لمَ قفزت إلى أول أتوبيس هرباً من الاستاذ وجدى . كانت أمى فى داخلى . الأتوبيس سفينة نوح .. بدأ إرسال السخافات .. رجل يتودد إلىّ لكى أقف أمامه .. وهو أحرص الجميع على مضايقتى برغم بروده الظاهرى .. قليل الأدب . امرأة تحمل طفلا قذر الهيئة والذباب يعف عليه ، نامت علىّ .. كدت

أقع : تحمّلى يا أختى كلّنا ولايا . لص ينتهز فرصة الزحام : الكتب والشنطة يا هانم ، يا ابن الحرام فهمنا اللعبة . كمسارى تعبان متعب يصيح : كل واحد معه جنيه .. لا يوجد فكّة .. الكل ينتظر حتى آخر الخط والمستعجل الباقى على ظهر التذكرة . كعب الحذاء هدّ حيلى .. ثمن الموضة . يا أولاد الحلال ألا يوجد بنى آدم واحد فى هذا الزحام ؟ لم يكن رأسى أهدأ من صخب الأتوبيس .. صندوق الدنيا يا عجيب .. من الذى لخبطك بهذه الطريقة ، أستاذ وجدى يا أمير .. ما الذى دفعك إلى هذه المغامرة ؟ .. أوه يا ربى .. متى أستريح ؟! .

عند العصر ومع كوب الشاى يحلو لى أن أرقب ظل الشجرة .. شجرتى كلما اقترب الليل نما الظل .. وامتدت الأحلام .. الظل يمتد فى النفس على قدر الإيمان به والعيش فيه كل إنسان رهين بظله ، الظل ينمو فى أى اتجاه كما نريد نحن .. نحن الشجرة والظل يا أمى .. رأسى هذا عجيب ، عمره بالقراءة والتأمل ومعرفة الحياة قرن .. قرن كامل من الزمان . لكن يا قلبى الأخضر ماذا تجدى المعرفة وأنت كتاب أبيض . اثنتان وعشرون سنة مرت عليك وأنت تأكل أرزًا ولبنًا مع الملائكة .. متى

تأكل طعام البشر ؟ شجرتى يا سلوتى فى وحدتى بدون الماء والهواء لا تنمو فروعك ولا تخضر أوراقك .. ولا يصبح لك ثمر . لكن أمى تقول العقل زينة !!

ـــ سأذهب الليلة لزيارة خالتك يا وفاء .. ألا تأتين معى ؟

ـــ آسفة يا أمى .

ـــ يا ابنتى .. أولاد خالتك يريدون رؤيتك .

ـــ سلمى عليهم .

وقفت أمى فى حيرة ، تحار وتحيرنى معها . هذه السيدة نسيت فرق الزمان بينى وبينها . تريد أن ترسم لى حياتى ، وحياتى ملكى أنا .. أنا وحدى يا أمى العزيزة .

ـــ خالتى هى خالة شريف .. خذيه معك .

ـــ أنت تعرفين أخاك جيداً .

ـــ ومتى تعرفيننى أيضًا ؟

ـــ سأموت ناقصة عمر قبل الأوان .

ـــ ألف سلامة .. لقد كبرنا .. افهمى هذا حتى تستريحى وتريحى ياأمى . خرجت فى عصبية وهى تشد الباب وراءها فى غضب :

ـــ جيل متعب .. يا خيبتها التى تريد خلفاً .. !!

هزتنى من الأعماق صرخة أمى : هل نحن حقاً جيل متعب أم جيل تعبان ؟ لمَ تصرّ أن الحق ما تراه هى فقط .. أليس لى عقل مثلها ؟ .. أنا متعلمة وفاهمة الدنيا . من الذى يقدر أن يقول إنه وحده الذى على صواب فى هذه الأيام السوداء . الحقيقة واحدة فى عالم المادة : الليل .. ليل ، النهار .. نهار ، الشجرة .. شجرة.. لكن الخطوط تتشابك عندما تدخل عالم الشعور ودنيا العاطفة ، الحقيقة الأكيدة والوحيدة هى ما تشعر به أنت .. أنت وحدك لا غير . إذا أحسست أنك تحب فامض فى طريق الحب حتى النهاية . لكن طريق الحب بلا بداية ولا نهاية يا وفاء . إنه يجعلنا نولد حين نعيش ونعطى إذ نأخذ ، إنه يجعل الكل فى واحد ، يجعلك تستغنى بواحد .. واحد فقط عن الدنيا وما فيها . آه .. هل هذا هو الحب يا وفاء ؟ ظل الشجرة ينمو .. يمتد .. يمتد .. الشمس على وشك الرحيل . ما حكايتك يا أستاذ وجدى ؟ سنة كاملة وأنا معك نعمل فى مدرسة واحدة . ما الذى هزك هذا الأسبوع بالذات . ثلاث مرات التقينا فيها . حين أنظر إلى عينيه أحس نهراً من الحزن وراءهما . يريد أن يقول شيئاً ، لكنه خجول ورقيق . فيه من « أبو الهول » الصمت والثقة بالنفس .

أشفق عليه كثيراً وأنا أهرب من حبه .. أهرب من حبه وأنا أتمناه .. كيد من خلال الموج مُدَّت لغريق . إذا استسلمت لحبه ماذا أقول لأمى . لكن لمَ أقول لها ؟ هل أخذت رأيى حين اختارت أبى ؟ أمى تخوفنى من الحب يا وجدى وأنت .. أنت تشدنى إليه . بدت الشجرة وحيدة مع دخول الليل . هدأت الحركة فى الشارع تحسست الخاتم فى إصبعى .. أخلعه وألبسه .. هل أخلعه أم ألبسه ؟ .. أوه .. يا أمى متحيرة . جلست أمام المرآة أرى نفسى لأول مرة . من صاحبة الوجه الخمرى والعيون العسلية والشعر الأسود ورقبة الغزال .. شفتاى عطشى إلى القول والفعل . أيها الصدر الحنون والقلب المشتاق متى .. متى ؟ سوسنة غارقة فى الظل يا وفاء . ضوء الشمس يهب الشجرة الحياة .. ويجعل الظل ممتدًا . الوحدة قاتلة . الفكر همّ . سأجرب مرة وعقلى فى رأسى ولن يكون إلا ما أريد .

فى الطريق إليه كنت أظن كل البشر .. حتى أعمدة النور .. وأشجار الطريق .. يرقبوننى .. يعرفون من أنا .. سيقولون لأمى . أوهام كثيرة تطاردنى ، كأنى أسير فى الطريق لأول مرة .. إنها بالفعل أول .. أول مرة .. أكون شجاعة أو لا أكون . فى الطريق إليه سرت

وحدى من بيتنا فى الدقى إلى شارع النيل .. كنت أكتشف أشياء جديدة أراها فى الطريق لأول مرة .. حدثت نفسى كثيراً عن أبى الذى لم أره .. عن الشجرة الوحيدة .. عن أخى الذى لا أكاد أعرفه أو أفهمه .. ولا أعتقد أنه يفهم نفسه .. عن أمى هذه الأرملة التى فقدت كل شىء قبل الأوان .. وصارت تشك فى أى شىء .. صارت مريضة الوحدة والفقد .. هكذا أنت يا دنيا قاسية .. كانت أول مرة أصرّ فيها على أن أمشى وحدى .. انقضى الزمن كأنه طرفة عين .. حين أبصرته واقفاً على الشاطئ فى انتظارى تاهت كل الأشباح التى قيدتنى .. ضاعت كل الأوهام التى أتعبتنى .. صار الظل حقيقة .

ـــ انتظرت كثيرًا يا وجدى .

ـــ المهم أنك وصلتِ بالسلامة .. يا وفاء .

عرفت مفتاح الحياة سامحك الله يا أمى . ضاعت كل هذه السنون هباء وأنا الضحية .. ضحية الخوف والوهم . ارتعشت برهة يحاول أن يضع يده اليسرى فى يدى اليمنى . اثبتى يا وفاء .. كونى شجاعة . شغلت نفسى بتساؤل : لمَ تسير المرأة على يسار الرجل .. لتكون مجاورة لقلبه .. أم لأن أمنا حواء خرجت من هذه الجهة اليسرى ؟

ـــ سعيد بك يا وفاء .. أحس أنى أملك العالم .

ـــ كنت مترددة فى أن أحضر إليك .

ـــ هذه مبادرة لن أنساها .

ـــ لمَ؟

ـــ لأنه منذ اليوم يبدأ عمرى الحقيقى .

ـــ شاعر أنت ؟

ـــ نعم .. منذ رأيتك .. سنكتب أعظم قصيدة حياة فى الوجود .. الحب خلاص البشرية من كل الآلام .

ـــ أثرت فيك رومانسية ناجى .

ـــ لا ... أعطانى وجودك بجوارى دفعة من أجل المستقبل .

ـــ أنت خيالى .

ـــ أنا إنسان .

برودة يناير حدت من قلة السائرين فى شارع البحر الأعظم . اِستندت على شجرة لكى أستريح من أفكارى . فى ظل الشجرة التقينا .. تعانقت أحلامنا .. كنت أحس

أن الشجرة تنمو .. تنمو فيها جذور جديدة ، تنبت فى نفس اللحظة ورقاً أخضر . الأغصان تمتد كأنها تحوطنى فى عش هادئ . كان الظل يمتد .. يمتد أصبحت لا أرى سواه .

فبراير ١٩٨١

الدموع .. لا تمسح الأحزان

ــ ولد يا عادل .. اذهب إلى السبورة .

تلفتُّ حولى فإذا مائة عين تنظر لى نظرات مختلفة .. فى السنة الأولى الثانوية خمسون تلميذاً وتلميذة ، والأستاذ رمزى مدرس الرياضة .

ــ لم يا أستاذ ؟

ــ حل المسألة الخامسة على السبورة .

ــ لم أعمل الواجب .

ــ لهذا أطلب منك .

الذى يفهم يريد منى أنا الذى لا أفهم أن أحل المسألة ؟ المسألة صعبة .. ومن أجل تحديك كرهت الرياضة ، لِمَ لا تقولها بصراحة .. لن آخذ درساً خصوصيًا .. أبى فقير .. هذا ليس ذنبى .. ولا ذنبه . معظم الفصل يأخذ عندك درساً .. بجنيهين فى الشهر أو كيلتين من القمح أو الأرز . نفسك حلوة يا أفندينا . تمنيت أن آخذ درسًا لكى أرى امرأتك الطرية تتودد إلى التلاميذ طالبة بعض اللبن أو البيض أو الذرة الخضراء . أفقت من شطحاتى على المدرس

ينهال علىّ ضرباً .. وشتمًا :

ــ أنت حمار .. ولا تفهم شيئاً .

ضحك بعض التلاميذ .. وسكت الآخرون . نظرت إلى السبورة ، بجوارها خريطة لأفريقيا مائلة .. والمسمار الذى يحملها يكاد يسقط .

ــ لماذا أنا حمار يا أستاذ ؟

انفجر معظم التلاميذ فى الضحك .. كاد الصوت يصل إلى حجرة الناظر . أدرك المعلم أن الزمام يفلت من يده ، صاح فى عصبية وهو يلوح بعصاه :

ــ كل واحد يفتح الكراسة ويحل الأسئلة صفحة ٧٥ .

تحجرت الدموع فى عينى .. لو بكيت .. ماذا يقول عنى التلاميذ . نجلس ثلاثة فى مقعد واحد . قال طارق هامساً :

ــ تحمَّل يا عادل .. سوف نقدم شكوى إلى الناظر .

حول الطبلية تجمعت أسرتنا الحزينة : الولدان وستة من الأبناء، يتسابقون فى خطف الطعام . لاحظ الأب أنى لا أكاد أشارك فى الأكل .

ــ هل أنت مريض ؟

ـــ أريد أن آخذ درساً فى الحساب .

ـــ نعم يا غبى ..؟!

نظر إلى أمى وبقية إخوتى بعد أن رمى اللقمة من يده :

ـــ يعجبك هذا يا نفيسة .. ابنك غبى مثلك .

نظرت إليه الأم فى حيرة .. وإلىّ فى شفقة .

ـــ طوّل بالك يا أخى حتى نعرف الحكاية من الولد .

ضيق شديد يملأ صدرى . انسللت من الصالة فى هدوء ، عزة أختى الكبرى جاءت مسرعة ورائى :

ـــ مالك يا عادل ؟

ـــ ....

ـــ قل يا حبيبى .. أنا أختك . أنا وزّة .. حبيبتك . !

ـــ المدرس سضطهدنى كل يوم كى آخذ درسا عنده .

ـــ لا تزعل يا عادل .. أبوك معذور .. نحن أسرة فقيرة .. وأبوك وحده هو الذى يعمل .

احتوتنى عزة بين يديها ، كانت أمّا فى الخامسة عشرة ، أخذت تمسح دموعى بطرف جلبابها .. لم تدخل المدرسة ، لكنها تفيض حناناً . يبدو أن الله يعرف أن أمى لن تفهمنى فعوضنى بهذه الأخت الحنون . بكيت .. غير أن الدموع لم تخفف همومى . شعرت فى

النهاية أنى أحمِّل الأخت المسكينة فوق ما تحتمل . أحسست برغبة في الخروج .

ـ إلى أين يا حبيبى ؟

ـ أحضر كتاباً من طارق .

بالطبع كنت أكذب عليها ، لأنى لا أعرف إلى أين سوف أتجه . فى الطريق لا أكاد أرى شيئاً ونحن فى النهار . حين يكون الإنسان حزيناً .. لا يرى ، لا يسمع ، لا يفهم ، كيف يفهم مَنْ لا أحد يفهمه ؟!

ذهبت إلى الحقل وجلست وحيداً تحت الشجرة ، لكن دخول الظلام جعلنى أحس برهبة.حاولت أن أقترب من العائدين من الحقول حتى لا أشعر بوحشة . لمحت إسماعيل العامل الزراعى عائداً من حقل العمدة . أقسم علىّ أن أركب معه على حماره . حاول أن يكلمنى ، لكن إحساسًا بالمرارة جعلنى لا أستطيع الرد عليه .

ـ اسمع يا عادل .. لازم تصبح طبيباً .. البلهارسيا يا ابنى دوختنى .. إن شاء الله لن يعالجنى إلا أنت .

ابتسمت ساخرًا :

ـ ما زلت فى السنة الأولى يا عم إسماعيل .

— الأيام تمر سريعاً .. فقط قل إن شاء الله ..

أعطانى هذا الرجل البسيط من الأمل ما جعلنى أستعيد الثقة فى نفسى . وصلت إلى القرية .. كان عبد الحى الجزار يمسك جاموسة ألبسها منديلاً أحمر ، فى أطرافه ورود مزركشة ، ينادى ليعلم الناس أنه سوف يذبحها غداً .. والأطفال حوله يرددون :

— يا سوّاح .. الدهن ساح .

تمنيت قطعة لحم وطبقاً من الفتة .. تذكرت أنه بقى على العيد ثلاثة أشهر . اليوم يبدأ التحدى .. سأذاكر ولن آخذ درساً . قبل أن أذهب للمذاكرة فكّرت فى أن أمر على زميلتى مايسة ، كانت ترقب الموقف بينى وبين المدرس فى حيرة ، هذه الفتاة تنظر إلىّ نظرات حالمة ، تأتى كثيراً لزيارة أختى ، قلبى يقول لى إنها تأتى من أجلى أنا .. !!

— أعطنى بقرش لبان يا عم شفيق .

— القرش أولا .

— عندما يأتى أبى .

— تعال بعد أن يعود .

حائراً وقفت بجوار الدكان . يا رجل يا دون نشترى منك كل

شيء ، ومع ذلك لا تتغير أبداً . مثل اليهود يا عم شفيق . أول مرة تدخل قلبَ التاجر الرحمة .. أعطانى ملبسة . لن أذهب إلى مايسة ويدى فارغة .. سأعطيها الملبسة .. وأشكو لها الزمان المــر .. تصورى يا مايسة مدرساً يستغل تلميذاً .. ورجلا يتحدى صبيًّا .. لذلك أكره الرياضة من أجله .. أخشى أن أكره المدرسة كلها . لكنى سأحاول برغم أن المدرس يتحدانى .. وأبى لا يعذرنى .. وأمى لا تفهمنى .. والبقال لا يبيع لى .

لحنى طارق ... نادى علىّ وأنا مشغول عنه .

— عادل .. تعبت من البحث عنك .

— لِمَ ؟

— قابلت الآن أسامة وحازمًا وشريفًا .. وهم مصممون على كتابة شكوى وتقديمها إلى الناظر .

— كيف نشكو أحمد إلى أم أحمد ؟

— ماذا ؟

— لن يفعل شيئًا .. إنه من القرية ويعرف ما يفعله كل مدرس .

— ماذا ترى ؟

— اجمع الزملاء عند المدرسة وسوف أحضر بعد قليل .

نظر إلىّ نظرة فيها بعض شك ، لم أبال .. تحسست حبة الملبس في جيب جلبابي ، مضيت كأني أحمل جوهرة إلى ست الحسن والجمال . ماذا أقول لمايسة ؟ .. أى شيء .. سوف أنسى معها كل عوامل التحدى — لا شيء يجعلنا عظماء سوى أمل عظيم .

اقتربت من دار مايسة . قلبى ينبض بشدة . شبح يقف خلف الدار .. مايسة ومعها إبراهيم ابن ناظر المدرسة . ارتعشت مفاصلى .. سحب أمام عينى ..

— مساء الخير .

— أهلا يا عادل .. رد إبراهيم فى هدوء .

لم تلتفت مايسة إلى ، يبدو أنها تضايقت لوجودى ، كأنها لا تعرفنى .. لم ترنى من قبل . لفة تفوح منها رائحة البسبوسة والمشبك فى يدها . قلت حتى أدارى خجلى :

— يمكن أن آخذ كراسة الرياضة ؟

— لم أعمل الواجب .

مازلت أظن أنه يمكن النفخ فى قربة مقطوعة :

— هاتى كتاب اللغة الفرنسية المساعد .

— أمى قالت لا تعطى كتبك لأحد .

أحسست أنى أتضاءل داخل نفسى . عدت والعرق البارد يتصبب من جبينى . انتفض الطائر الجريح فى صدرى ، أمسكت به فوجدت الملبسة .. قذفتها بأقصى ما أقدر عليه . مرارة تسرى فى فمى . تجمعت فى رأسى الصغير كل مواقف الإحباط . بصقت فى كل اتجاه ، لكن المرارة لم تجف من حلقى . كان الظلام يلفّ القرية .. تمنيت أن أهد القرية وأن أعيد بناءها من جديد .. قرية جديدة .. لا ظلم .. لا فقر .. لا خداع . لن أكون وحدى .. فاليد وحدها لا تبنى شيئاً . تذكرت أصدقائى ينتظرون .

ــ انشغلنا عليك يا عادل .. قال أسامة .

ــ آسف .. كنت مشغولا .

ــ اتفقنا على كتابة شكوى وتقديمها إلى الناظر .. قال طارق .

ــ لن نكتب .. سنتحدث .. أنا صاحب حق ، المدرس لا يشرح ولا يكف عن الضرب والشتم .

ــ لم تقل هذا اليوم .. رد شريف .

ــ اليوم انتهى .. وغدًا يبدأ التحدى .

ــ غدًا سنخرج من الطابور إلى حجرة الناظر ، لن يدخل تلميذ

أو تلميذة الفصل .. قال طارق .

عدت إلى البيت وحيدًا .. كنت أحس أن فصل أولى ثالث كله معى . حين يجد الإنسان شجاعته لا يكون وحده .. المهم البداية الصحيحة . تذكرت أن عزة تنتظرنى .. تخيلت إسماعيل يقول فى ثقة :

ـــ نحن فى انتظارك يا دكتور .

٢٣ يوليو ١٩٨١

الدودة

مع شروق يوم جديد .. ركب حماره . مد يده فأمال الطاقية عن رأسه . البركة فى البكور .. حكمة ورثها عن أبيه . جاء يرى فدان القطن الذى يملكه . قيّد الحمار وتركه يرعى . الحمار يأكل الحشائش من الجسر ولا يميل ناحية القطن .. نظر إبراهيم فى مودة إلى شجيرات القطن .. بدأ الزهر يظهر . تأمل ولده الكبير جودة يجمع قرون البامية . حين أبيع القطن يا جودة أخطب لك البنت شربات التى تحبها .. التقيا فى منتصف الحقل .. جلباب الولد مبلول بندى البامية .

ــ الدودة .

ــ ما تقول يا ولدى ؟

ــ بدأت تفقس فى رأس الأرض .

ــ رأيتها بعينك ؟

ــ نعم ..

أحس إبراهيم انقباضًا مباغتًا حين سمع كلام ابنه .. أحنى ظهره على شجيرات القطن .. يتأمل فى صمت .. هناك بعض لطع تختفى

فى ظهر الورق.البيض فقس . الدود بدأ يتغذى على الورق الأخضر . دودة استقرت فى زهرة شجرة ، تنظر إليه فى تحد . ليست هذه أول مرة يرى الدودة لكن إحساسًا بالهم سوّد خواطره . لِمَ خلق الله الدود ؟

لم يستطع أن يرفع قامته . جلس على ركبتيه .. تخّيل الدود يزحف من كل مكان .. الدود أكل القطن ثم زحف يأكل ولده . نظر إلى السماء فى عتاب . سرب من طير أبو قردان يسير بسرعة ، ثم حط فى حقل أرز بعيد .

نظر الولد إلى أبيه فى شفقة : أبى .. الدودة .

ــ ....

ــ لا بد من السرغة .

ــ أيام جدك كنا نأخذ المقاطف .. نهزّ الشجر فى الصباح هزات خفيفة فينزل الدود ثم نحرقه .

ــ لابد من المبيد .. الدنيا تغيرت .

ــ ليتها بقيت ..٠!

* * *

رجع من الحقل مهموماً وتوجه إلى مبنى الجمعية الزراعية ..

تأمل جودة والده فى صمته الحزين . أبوه قليل الكلام لكن عينيه تقولان كل ما فى قلبه . باب الجمعية ما زال مغلقاً .

ــ خذ الحمار واذهب إلى الدار .. سوف أنتظر .

ــ أنتظر أنا ..

ــ لن تقدر على التفاهم مع عبد الملك .

مضت مدة لا يعرف لها حسابًا .. فالزمن لا يعرف حسابه إلا المعذبون . مبنى الجمعية فى حارة مسدودة . جلس على المصطبة حزينًا . نسى كل شىء إلا الدودة .. الدودة ستأكل فدان القطن .. وإذا لم يقض عليها سريعاً تمشى .. تمتد .. تأكل قطن البلدة . تستطيع أن تخرب البلدة كلها . حين يظهر الخراب فى جزء سرعان ما يمتد إلى كل مكان .. لكن الخير لا يمتد بهذه السرعة .

ــ صباح الخير ياعم إبراهيم .

فاجأه فرحات عامل الجمعية .. بعد برهة جاء عبد الملك .

ــ أريد المبيد .

ــ لم يأمر المشرف الزراعى .

ــ الدودة ظهرت .

ــ أنا عبد المأمور .

ــ من أجل خاطرى .

ــ الشغل شغل .

ــ يا عبد الملك أفندى نحن أقارب .

ــ لا فائدة .

الكاتب مشغول بتجهيز الدفاتر وورق الكربون ومسطرة خشبية . فرحات يرش الماء أمام باب الجمعية ، لكن أذنيه تمسكان كل كلمة . ترك الكوز فى صفيحة الماء الفارغة وانضم إلى الرجلين .

ــ عمّك إبراهيم رجل طيب .

قال ــ دون أن يلتفت إليه ــ الكاتب :

ــ معك نقود ؟

ــ كله على الحساب .

صاح فيه بحدة :

ــ أعطيك المبيد دون إذن المشرف .. وأرش حقلك فى غير الدور .. ثم تقول على الحساب .. ؟!

ــ طوّل بالك يا بيه .. الرجل يتفاهم معك ..

ــ اخرس أنت يا ولد يا فرحات .

ــ اصبر ويكون خيرًا ..

ـــ اجلس مكانى .. وأدر الجمعية على كيفك ؟!

لم يبال فرحات بغضب الكاتب المفتعل .. أخذه من يده وذهبا إلى الخارج .

ـــ أعطه جنيهًا يا عم إبراهيم والمسألة تحل .

ـــ اليد قصيرة .

ـــ طيب .. نصف .

ـــ ولا هذا .

ـــ اسمع سنكتب أنك استلمت اثنى عشر لترًا ، ثم تأخذ عشرة .. وتترك لِترين من المبيد .

ـــ ألا يكفى لتر واحد ؟

ـــ اسمع كلامى حتى تمشى الأمور .

ـــ أمرى لله .. !

عاد إلى الكاتب .. يضع ورق الكربون بين الورق ، يكتب فى دفاتر صفراء وزرقاء . نظر إبراهيم إلى حائط الجمعية فأدهشه أن هناك دودة حمراء تسير .. تسير فى خط متعرج . الدود وصل الجمعية .

* * *

ذهب إلى الدار .. كانت زوجته زينب تخبز العيش . جلس على مصطبة وسط الدار، يتأمل البط والفراخ .. نادت عليه من مكانها .

— فطرت يا أبو جودة ؟

لم يجب .. تركت مكانها أمام الفرن ، جاءت بطبق بطاطس وحزمة فجل وبعض خبز ، لم يلتفت إلى الطعام .

— مالك يا رجل ؟

— لا أريد .

— أحضر لك قطعة جبن تفتح نفسك ؟

وضعت قطعة من جبنة المش فى طبق من الصاج .. تأمل الطبق .. المش به شيء يتحرك .. يمشى ، قال كالملدوغ :

— الدود .. الدود وصل يا زينب .

ردت عليه دون مبالاة :

— يا رجل .. دود المش منه فيه !

مايو ١٩٨١

تـغريبة ولـد اسمـه كــرم

فى الطائرة إلى الخليج العربى .. تذكرت أول مرة ركبت فيها عربة .. كانت عربة الترحيلة . لو كان الفقر رجلا لقتلته لكنه امرأة ، ومن أجل امرأة ولدتنى تحملت العذاب فى كل مكان . مات أبى وأنا صغير ، أصبحت مسئولا عن خمسة أفواه .. أم .. ثلاث بنات .. طفل رضيع .

فى مدينة الدوحة .. دخت أيامًا وليالى ، ليس معى مؤهل سوى عافيتى ، عملت نجارًا .. بناء .. حامل طوب . أكل العيش مر . فى حى شعبى يعيش المساكين .. أمثالى .. من الهند وباكستان وإيران والسودان .. كما كنا نفعل أيام الترحيلة فى عزبة العمدة .. نجمع القطن .. نحصد القمح .. نشتل الأرز .. يا عم المسعد فى بلاده مسعد فى بلاد الناس .

ــ سيجارة يا زول .

أعطانى صديق سودانى سيجارة وأردف :

ــ الحكاية شنو .. مالك زعلان يازول ؟

ــ الغربة صعبة .. سنة طويلة وأنا غائب عن أربع نساء ..

وطفل .

ـــ يازول خليها على الله .. وانس الهم ينساك .

ـــ الهم هو الذى لا ينسانى .

* * *

ولدى العزيز كرم ..

التحية من الأهل والأحباب والجيران ، والسلام من بر مصر الحبيبة .

أعرفك يا ولدى أننا بخير والحمد لله ، لا ينقصنا سوى مشاهدة رؤياك . نحن فى صحة جيدة . أخوك صابر سيدخل المدرسة هذا العام ، أخواتك سنهير ومديحة ومنى يقبلن الأيادى . أختك جاءها عريس .. عسكرى محترم يعيش فى البندر لكنى رفضت .. مستحيل أتصرف فى شىء ورجلنا موجود .. النقود سددت منها الديون وباقى عشرة جنيهات ، سأدخرها حتى نشترى عِجلة تنفع للزمن.أختك منى تطلب فستانًا أخضر .

والسلام ختام

والدتك الغالية

أم كرم

ملحوظة : تقبل سلام كاتب الرسالة الأخ راضى أبو عثمان ، وأعرفك يا أخ كرم بأنى عدت من الحرب منتصرًا وقتلت بيدى عشرة من اليهود فى معركة رمضان .. وناوى إن شاء الله أخطب أختك عندما تعود بالسلامة حتى تتم الفرحة .

* * *

الليل مشحون بالرطوبة العالية والغربة الطويلة .. تذكرت الوطن والأهل .. إيه يا مصر .. لِمَ تركتنا نتغرب . الغربة صعبة وقتالة . لو كان العمدة يعطى أجرًا مناسبًا ما تغربت يا أمى ؟ إيه ياعفاف .. سأدخر كل درهم ، أفتح محل بقالة ، أزوج أخواتى ، الولد صابر لازم يتعلم حتى لا يرى ما رأيته .. وبعدها .. يا عفاف تكونين عروستى على سنة الله ورسوله .. أول مرة رأيت عفاف .. فى حقل فول أخضر .. تكون دائما فى مقدمة العمال .. وحدها تغنى والفتيات يرددن :

يا بتاع النعناع يا منعنع   يا بتاع النعناع يا واد انت
ودّينى بلدى وادّيلك   بوسة من خدى واوهب لك
مالى وأموالى وحوّش لك   حوض من النعناع يا منعنع
يا بتاع النعناع يا واد انت

....

طالت أيام الغربة .. أحن إلى مصر .. وإليك يا عفاف، سنوات أربع .. بطيئة .. كئيبة . شربت المر .. أكلت الذل .. كله فى الحب يهون .

اليوم عدت ..

يا ليتنى ما عدت ..

شيء ما خطأ فى هذا الكون ؟

عفاف زوجها أهلها بالإكراه من فاروق ابن شيخ البلد . عندما تجد العش تفقد الحب . تسللت برغبة عنيدة إلى دار الفرح أكحّل عينى برؤية الحبيبة قبل أن تطير . تاهت عفاف فى الملابس البيضاء . لم أستطع أن أسترد نفسى .. من بحار الغربة ! .. غناء .. طبل .. رقص .. الماشطة تغنى بصوت مجروح :

صخرة تودّينى بحر يعدّينى

واللى على جبينى آهو بتشوفه عينى

يا حليلة يا حليلة على دى الهليلة

لا مكان لحزين فى دار عرس .

مشيت وحدى ..

على شط الترعة .

أيام جفاف .. غاض الماء .. ضاع السمك .. أمسيت قريباً من حقل الفول الأخضر .. عفاف .. هكذا ننتهى من حيث نبدأ .. ؟ أفقت على صوت طلق نارى متكرر ، دخل الطائر القفص . لم أدر ماذا أفعل ؟ سرت فى الظلام .. لا أحب الظلام ، لكن الليلة آخر الشهر يا عفاف .

غاب القمر ..

فى ليلة نريد فيها القمر .

أحبك يا قمر .

لكن يا قمر .. إيه الخبر.؟!

أخذت أمشى .. أمشى فى ظلام الغربة .. أبحث عن القمر .. ؟!

يونيو ١٩٨١

المجنون

ـــ ياعم على .. أليست هذه لوحتك ؟

انتزع على أبو الذهب الجريدة من يد سمير .. لمعت عيناه .. علا صوت أنفاسه .

ـــ نعم .. صنعتها بيدى ، رأيتها بنفسك من قبل .. أقرأ .. أقرأ ما كتبوه يا سمير .

نظر الصبى فى دهشة إلى جاره العجوز.. أشفق عليه . الحقيقة مرة .. تحير . ظل صامتًا .. !

ـــ فرحتك من أجلى جعلتك صامتًا يا بنى .

على أبو الذهب أعظم صانع حصر فى القرية . بالخبرة صار فناناً . الحصيرة الملونة من يده سجادة عجمى . هواية أخرى مارسها بعد أن أمسى لا يقوى على شد المضرب الخشبى .. لوحات من أعواد القمح الجافة على قماش ملّون .

ـــ لوحتك كسبت الجائزة الأولى فى معرض الفنون .

ـــ أخيرًا اعترفوا بأن الفلاح فنان .

يتدلى من سقف الدكان أكثر من صفيحة . منظر الحمام بديع

وهو ينتقل من عش إلى آخر .

ـــ تصوّر يا عم على .. الجائزة ألف .. ألف جنيه ؟

ـــ رزق الأولاد يا سمير .

نظر إلى الصبى بفرحة طفل ، وهو يمسح شاربه المتهدل .

ـــ لن أنساك .. أنت الملهم .

على باب الدكان كلب يحمل فى فمه رغيفاً .. بطة تسير فى دلال .

قال أبو الدهب مرحاً : آكلك منين يا بطة ؟

الكلب يلتهم الرغيف ، وينظر إلى البطة فى اشتهاء .

ـــ منظر عظيم .. اشتريته لك من البندر .. تمثال نهضة مصر .. للفنان مختار .

ـــ أحس أن شيئاً ينقصه .

ـــ ما هو ؟

ـــ اترك الصورة وسوف ترى .

دكان أبو الدهب عالم غريب .. بابه مفتوح فى الليل والنهار . كل بيت فيه تحفة من يد أبو الدهب .. أصدقاؤه من كل شكل مثل ألوان الحصيرة . أبو الدهب الحصرى يتسع قلبه للجميع،الحزين ..

الفرحان .. قعدة الجوزة .. جلسة المياه الصفراء .. يا سلام لو بنت بيضاء . لا يترك فرضًا من فروض الله . شعاره الوحيد .. ساعة الحظ لا تعوّض . إذا انسطل يغنى بصوت نشاز :

روّق القنـــــــانى روّق عينْ برق الخزام واسقينى.. ياعينى

وانْ جـانى محبـوبى الليلـــة لاعملّه ع القُصة جنينيه .. ياعينى

سمير جار أبو الدهب .. تلميذ فى الثانوية .. شاب مثقف .. ليس مثل أولاد اليوم ، الثقافة جعلت منه رجلا قبل الأوان .

— فاكر يا سمير .. كيف عملت هذه اللوحة ؟ .

— هيه ..

— على قماشة سوداء صوّرت بأعواد القمح تمثال نهضة مصر ، ثم وضعت شمعة فى رأس أبو الهول ونخلة فى رأس الفلاحة .

نظر إليه الشاب فى صمت حزين .

— الفن إحساس .. هذا ما صورته .

— أمرك غريب ياعم على .

ستون عاما لم يتجاوز حدود مركز المنصورة إلا مرة واحدة لزيارة السيد البدوى . نزل القاهرة لأول مرة .. حصوة ملح ذابت فى الزحام والضجيج . أحس بالخوف ، كل واحد يسير فى حاله ،

حتى السلام ما قالوه .. ماذا حدث لأولاد العرب.؟ لعن اليوم الذى رأى فيه الأستاذ إبراهيم الذى اشترى منه اللوحة بعشرة جنيهات كاملة يوم زار القرية مع قريب العمدة . طلعت روحه من أتوبيس إلى تراموای حتى وصل إلى مصر الجديدة .. نادى الشمس . الوحيد الذى يلبس جلباباً بين الداخلين والخارجين . أوقفه البوّاب :

ـــ إلى أين ؟

ـــ المعرض .

ـــ أنت عضو فى النادى .

ـــ لا .

ـــ ادفع عشرة قروش .. رسم دخول .

ـــ كل شىء أصبح بالفلوس يا عالم .

وصل إلى صالة العرض .. صاح بفرحة :

ـــ تعالوا يا ناس .. أنا الذى صنعت هذه اللوحة .

كانت لوحته كما صنعها بيديه ، لكن وضع لها إطار فضى حوله لمبات صغيرة ملونة تضىء وتطفئ وحدها،فتهب اللوحة سحـرا خاصا . تجمّع حوله بعض الحاضرين . شاب ذو شعر كثيف ونظارة سوداء قال له بغلظة :

— مكتوب تحت اللوحة .. صنع الفنان الكبير الأستاذ إبراهيم الجاهز ، ومرشحة للعرض فى الخارج بعد أن فاز صاحبها بالجائزة التقديرية فى الفنون .

— مستحيل .. كذب .. غشّ .. أنا ..

— أنت جاهل .. أو مجنون .

جاء مدير النادى .. قال له فى رقة :

— صاحب هذه اللوحة فنان معروف .. والوزير نفسه هنأه على هذه اللوحه عندما افتتح المعرض .

— لكن .. أنا .. أنا يا ناس ؟

أخذه مدير النادى من يده إلى ناحية أخرى فى الصالة :

— انظر يا حاج صاحب هذه الصورة هو الفنان الكبير صاحب اللوحة الفائزة .. لو سمحت هذا نادى محترم .. وأنت ..

— أنا .. يا بيه ؟

— أنت رجل كبير لا تضطرنى إلى عمل غير لائق .

أحس رغبة عنيدة فى أن يثبت أنه موجود .. أنه فنان .

لأول مرة يغلق الدكان على نفسه .. حتى سمير صار لا يستطيع أن يصل إليه . أخذ يصنع لوحة جديدة .. من قش القمح الذى

لا يأكله . كانت الخلفية قطعة قماش من كل الألوان . تخيّل صورة غريبة للإنسان ينفّذها : الوجه وجه إنسان فى رأسه شعلة تنتهى بميزان فى الكفة اليمنى قلب واليسرى ريشة بيضاء ، الصدر صدر مهرة ، القوام العلوى جسد رجل قوى ، الرجلان .. اليسرى رجل أسد أمامها برسيم أخضر ، واليمنى رجل ثور أمامها دم أحمر .

وقف سمير مشدوهًا أمام اللوحة .

ـــ لوحة غريبة ياعم على .

ـــ حتى يعرفوا أنى فنان حقيقى يا ولد .

دخل على مدير النادى .. العرق يتصبّب من جبينه .. وقد تاه وسط جلبابه الصوفى الواسع .

ـــ هل صدقت يا سعادة البيه ؟

ـــ ....

نظر إليه الرجل فى هدوء من خلف المكتب عبر نظارة سميكة مذهبة الإطار .

ـــ هل يمكن أن أدخل بهذه اللوحة إلى المسابقة ؟

ـــ فات الموعد .

ـــ ولا حتى أعرضها للجمهور .

ـــ مستحيل .

ـــ لِمَ ؟

ـــ أنت عضو فى النقابة ؟

ـــ لا .

ـــ هل اشتركت فى معرض من قبل ؟

ـــ لا .

ـــ معك شهادة تثبت أنك فنان.؟

ـــ لا .

ـــ بكل أسف لا أستطيع مساعدتك .

نظر إليه المدير فى شفقة وهو يرتشف القهوة فى هدوء .

ـــ على كل .. اكتب عنوانك ورقم تليفونك .. وقد نتصل بك .

ـــ أنا أمى يا أستاذ .

ـــ إذن لِمَ تعبت قلبى ؟

أمسك اللوحة وكسرها عليه قطعة قطعة .. لم يكن يفكر فى شىء .. سوى أن يشفى غليله . احتشد بعض الناس والعمال ..

حاولوا فض المعركة .. أسلم العجوز ساقية للريح .. أخذ يجرى .. يجرى .. يبحث عن مكان به ظل . بعض عمال النادى يجرون خلفه صائحين :

— أمسكوا المجنون .

يونيو ١٩٨١

إنهم يأكلون البطيخ

الليل هادئ . القمر يفرش ضوءه على الحقـول . لا حس .. لا حركة . هواء الليل يلعب بأعواد القصب .. ورق القطن .. مياه النيل . سار غريب أبو عطية وحيدًا . لا يقطع صوت الصمت سوى أقدام حوافر الحمار . أخيرًا حقق غريب حلمه . ترك تجارة الفجل والكرات والطماطم والخيار والفلفل . اليوم أصبح فكهانيًّـا . البطيخ .. فاكهـة الصيـف المفضلـة . فاكهـة رخيصة للغنـى والفقير .. حلوى وغموس .. تسالى وطعام للدواجن والماشية . صديقة زوجة شيخ البلد تقلّد زوجة العمدة تصنع من الجزء الأبيض مربى لذيذ الطعم . يا فرحتك ياست الدار .. صبرت ونلت .. المعلم غريب فكهانى سوف أرص البطيخ مثل الهرم أمام الدكان .. الذى لا يشترى يتفرج . المكسب فى البطيخة شلن على الأقل .. إسماعيل أبو إسماعيل جارى الطيب سوف أعطيه بطيخة هدية .. الرجل أعطانى حماره وأقسم ألا يأخذ مليمًا .. أصيل يا إسماعيل لكن الفقير رائحته ملوخية .

كاد الليل ينتصف . غريب ذهب فى المغرب يشترى البطيخ .

ـــ يا عم نعمان أكرمنى الله يكرمك .. !

ـــ السعر مثل ورقة البوسطة .. الغلاء علّى وعليك .

ساومه صاحب الأرض .. و لم يبع له إلا بعد أن انتهى من شحن بطيخ تجار المنصورة : عربات لورى .. جرارات .. كارو . هل سيأكل سكان المنصورة كل هذا البطيخ ؟ عزّ عليه أن أهل البندر لن يستفيدوا من القشر ، فليس عندهم حيوانات أو طيور ؟ عبد الكريم الخفير .. أقسم عليه أن يشرب الشاى معه قبل أن يعود .. وها هو يسير فى منتصف الليل وحيدًا هو وحمار إسماعيل . حين يفتح الله عليه سوف يشترى عربة كارو، ويذهب إلى المنصورة لبيع الخضار والفاكهة . أولاد البندر يأخذون أموالهم من الحكومة بلا تعب .. يكفى أنهم يعملون وهم جالسون فى الظل ، يشربون القهوة والشاى ، ويدخنون سجائر ماكينة . إن فاتك الميرى ابعد عن ترابه .

انشقت الأرض فجأة عن خمسة مسلحين .. أوقفوا الحمار .. وزعقوا صائحين :

ـــ من أنت يا كلب ؟

تضاءل داخل نفسه .. اسودت الدنيا أمامه مع أن القمر

موجود .. نسى اسم الله والشيطان .. ولم يستطع أن يتوسل أو يستعيذ . تراءى له شخصان أثناء الخوف : زوجته ست الدار تصيح نادبة .. يا ميلة بختك يا جملى .. وإسماعيل يصرخ .. يا مائة ندامة عليك يا حمارى ..!

أحاطوا به مثل الكماشة .. ضرب .. شتم .. زعيق :

ــ أين النقود يا حمار .. ؟

ــ عامل شاهبندر التجار .. وكل ما معك سبعون قرشاً .. !

ــ لِمَ ولدتك أمك يا ابن الفاعلة ؟

ــ انطق .. وخلصنا .

ــ فقير .. وأخرس .

ــ حتى الحمار لا يساوى أكله .. !

ــ الحمار وصاحبه .. روبابيكيا .

رموا الحافظة بقروشها فى البحر .. وحمل كل منهم بطيخة .. واختفوا داخل حقول القصب والموز .

رمضان أبو الغيط .. اللّحاد الأعور .. الوحيد فى قرية كفر بدواى .. الذى لا يخاف الموت .. يدخل عالم الموتى لا يخايله أى وسواس . يفتح القبور بنفس مفتوحة .. السفر مستمر .. والرحلة

إلى عالم مجهول لا تتوقف .

طرقت الباب عليه ناعسة الداية بعد صلاة العشاء :

ــ قصداك فى مأمورية يا عم رمضان .

ــ خير ياناعسة .

ــ هل سيأتيك الخير وأنت قاعد فى دارك .. تعال .

ــ أمرك .

خرجا بعيدًا إلى شارع فى نهاية القرية .. أحكمت لفّ الطرحة حول رأسها .. أخرجت من صدرها شيئًا :

ــ جنيهان كاملان .. ورق أخضر .

ــ من يد ما نعدمها .

ــ خلف الجامع القديم جثة طفل ولد ميتًا ..

أخذ يحدق بعينه الوحيدة فى المرأة :

ــ ولد ميتًا .. ياناعسة ؟

ــ ربك ستار .

ــ لكن يا ناعسة ؟

ــ أنت حمار .. يا أبو الغيط .. لِمَ لم يسموك أبو الغشم ؟

قبل الفجر بساعة لبس أبو الغيط دفية من الصوف رغم أننا فى

عز الصيف . لف حول الجامع القديم . حمل أمانة يدفنها — مثلما جاءت فى الظلام تذهب .. مضى يترقب السائرين . قابله غريب أبو عطية . ألقى عليه السلام ، لكنه أخرس مثل حمار يسير أمامه . شخط غريب فيه قائلا :

— ابعدوا عنى يا ناس يا شر .

من زقاق إلى حارة ومن حارة إلى شارع سار والناس نيام وضوء القمر يفترش الطريق . الدفية الصوف تلف رمضان أبو الغيط . اقترب من حجرة المدفن .. استراحة بها زير ماء ، أقامها أهل القرية حتى يستريح فيها زائرو الرحلة الأخيرة .

بجوار الجدار الملاصق للقبور .. أخذ يحفر بأصابعه العشرة يحفر .. يحفر . لفة القش صامتة تفوح منها رائحة غريبة . أول مرة يساوره الخوف . إنه يفتخر دائما بأنه لا يخاف حتى من العفاريت الزرق .. من كثرة ما ألف المقابر صار يدرك أن العفريت الحقيقى هو بنى آدم .

شكوك بدأت تساوره .. حركة ما تدور .. ترى هل بعث الله الموتى .. هذه معجزة ولسنا فى عصر المعجزات ؟ صوت حديث يدور .. أعوذ بالله من الشيطان .. الشيطان الرجيم .. يا خفى

الألطاف نجنا مما نخاف . لا .. ليست هذه وساوس ولا تهيؤات .. إنها أصوات حقيقية .. نعم صوت وحركة .. زعيق ونقاش .. ماذا جرى فى الكون يا عالم ؟

رمى لفة القش فى الحفرة .. لم يهتم هل غطاها التراب أم لا ؟ سار يبحث عن مصدر الصوت .. الصوت بدأ يتضح .. هناك حركة حقيقية .. أخذ يقترب من حجرة المدفن . زير الماء تنزل منه قطرات منتظمة فى طاجن فخارى . داست قدمه الحافية نباتا شائكا ، أحس ببعض ألم .. لكن الصوت يعلو والحركة تتضح .. يا سبحان الله .. حركة حقيقية .. صوت مخيف يردد :

ــ أخذ كل منكم نصيبه .. تعالوا نأكل البطيخ .. اكسر يا ولد ياعيسوى .

تساءل رمضان .. من يأكل البطيخ إنس أم جن ؟ .. أخذ يقترب أكثر .. ضوء القمر صار شاحبًا .. أخذ يفتح عينه الوحيدة . تراءت له عدة أشباح .. أخذ يحملق أكثر .. خمسة يأكلون البطيخ مثل الآدميين ؟ عجيب الجن لا يأكلون البطيخ .. وإذا كانوا بنى آدميين فما الذى جاء بهم إلى هنا .. يأكلون الفاكهة بين الموتى .. ؟

أطل برأسه من الباب حتى يتأكد .. عصا غليظة انهالت على رأسه فجأة ، جعلت عينه الوحيدة ترى نورًا لم ينزل من سماء .. ولم يخرج من أرض .. أسلم ساقيه للريح . أخذ يجرى .. يجرى .. قفز فى أرض أرز موحلة . الطين يشد قدميه .. لكنه يحاول الخلاص من الطين .. ثقلت قدماه فى الطين .. وهو يصيح :

ــ يا بلد .. يا بلد .. العفاريت يأكلون البطيخ .

يوليو ١٩٨١

المسحراتي

القرية نائمة .. وحدى أسير فى الطرق الضيقة والليالى المظلمة . « اصح يا نايم .. وحّد الدايم » . ثلاثون عامًا وتسعة وأنا أمارس هذه العادة . أنا برهان أبو الخير .. سقاء فى النهار .. وفى الليل مسحراتى .

تصوروا يا عباد الله وحدى علّى أن أوقظ كل النائمين فى الليل .. شتاء وصيفاً .. لا أكل ولا أمل .. أسير من شارع إلى شارع ، البازة فى يدى .. وهى بازة أثرية ، سطحها من الجلد على نصف دائرة من النحاس الأصفر المزخرف ، بعض الأطفال يظنونها مثل الطبلة .. لا الطبلة من الفخار . أخذت أواصل الضرب على البازة فى مدح الرسول :

أول مانبدى اليُومْ مدحك يا نبى استفتاح
يامن تسلم عليك الشمس كل صباح

ورثت هذه المهنة أبا عن جد ، لكن الولد محمد ابنى رفض منذ صغره أن يعمل سقاء ، أو أن يشاركنى فى الليل مثلما كنت مع أبى وأنا صغير . حفظت أقدامى الشوارع والحارات والمرتفعات

والمنخفضات .. القرية حين تكون نائمة مثل المقبرة . هناك علاقة بين الموت والنوم ، سألت الشيخ عمران إمام المسجد مرة فقال :

ـ النوم راحة من التعب .. والموت راحة من الحياة .

ـ كل من ينام تعبان ؟

ـ النوم صمت .. والصمت نصف موت .

كل ليلة قبيل الفجر أجهد قدمىَّ المتعبتين،لكى أوقظ أنصاف الموتى .. لكن نومهم ثقيل . الشيء الذى يملأ قلبى همًّا وحسرة أننى تعبت .. كبرت .. ستون سنة ، كل يوم أطوف بالقرية . السؤال الذى يحيرنى أن القرية اعتادت النوم .. النوم الثقيل .. صحيح كل واحد يتعب لكى يكسب .. أكل العيش مر . الناس لا يفكرون إلا فى الأكل والشرب .

سألت المقدس خليل البقال :

ـ لِمَ تصوم كثيرًا يا مقدس ؟

ـ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

ألف القرية كلها .. « يا عباد الله .. وحدوا الله » ، ثم أذهب إلى المسجد فلا أجد سوى صف واحد وراء الشيخ عمران ، مع أنى ألف

الشوارع كلها .. حتى الخفراء لا أحد منهم فى الدرك .

السؤال الذى يشغلنى أن القرية بدأت تستغنى عن برهان السقاء ، لأن المياه النقية أصبحت قريبة من البيوت . لكن برهان المسحراتى كبر .. وشاخ .. فمن الذى سوف يوقظ البلدة ؟ ، سامحك الله يا ولدى فضلت أن تعمل بنّاء ولا ترث مهنة أبيك .. الولد محمد وهو صغير قال :

ـــ لِمَ تشغل نفسك بغيرك ؟

ـــ غيرى .. كيف يا محمد .. من يوقظ الناس للصلاة .. للعمل .. لاستقبال اليوم الجديد .

ـــ الدنيا تغيرت يا أبى .. كل واحد يبحث عن مصلحته .

ـــ بداية الخراب يا محمد أن يبحث كل واحد عن مصلحته فقط .

بعد هذا النقاش مع محمد عضنى كلب شيخ البلد ، فرح فىّ الولد ، وشمتت أم محمد .

ـــ يا رجل اعقل .. أرح نفسك الليلة .. رجلك مجروحة .

مستحيل أن أسمع كلام زوجتى أو ولدها .. كل ليلة أدبّ ..

وأطوف . أحب القرية ، أخشى إذا لم ألف عليها كل ليلة ألا تقوم للصلاة وألا تذهب للعمل . إحساس حزين يملأ قلبى أننى أمر كل ليلة .. وأنادى على النائمين لكن لا شىء يتغير .. الذين يقومون فى الفجر ، هم هم لا أحد زيادة .. لا أحد ينقص اعتاد الناس على النوم بشكل مخيف .. طيب إذا أنا مت فمن يوقظهم ؟ .. تذكرت أنى أمر كل ليلة ومع ذلك لا يقومون ، الولد محمد قال مرة :

ــ الدنيا تغيرت .. لم تعد البلد فى حاجة إلى مسحراتى .

ــ لماذا يا ولدى ؟

ــ كل واحد يجب أن يكون مسحراتى نفسه .

الولد محمد أصبحت لا أستطيع أن أجاريه فى الكلام .. ما معنى أن يكون كل واحد مسحراتى نفسه ؟ تحيرت هل الدنيا تغيرت حقيقة ؟ وإذا كانت تغيرت فإلى أى اتجاه ؟ أين أيام زمان أيام الخير والبركة ؟ حين كنت أمر مع والدى ، طرقات بازته توقظ النائمين . مع الفجر كانت القرية تقوم كلها .. خلية نحل .. حتى النساء كُنّ ينتهين من إعداد الخبز وتنظيف الدار وحلب الماشية قبل طلوع الشمس، الظلام يلف القرية.. والناس نيام «اصحح يا نايم اصحح.. وحد

الرزاق » ، مررت على قهوة المعلم مراد فى حارة مغلقة .. المكان الوحيد الذى لا ينام الليل .. يلعب فيه بعض الرجال والشباب القمار ويشربون الشاى والحشيش ، حين يسمعون صوت البازة ونداىٔ يخرجون لا للصلاة ولا للعمل .. ولكن للنوم . كان بينهم شيخ الخفر ، حين رآنى ضربنى بعصاه الخيزران ، وشخط فىّ :

ـــ يا رجل بلا وجع دماغ .. اترك المُلك للمالك .

الليل أسود .. القرية نائمة .. صعبت علىّ نفسى ، أول مرة أهان بهذه الطريقة .. خيرًا تعمل .. شرًّا تلقى .. آه يا بلد . لم أستطع أن أكمل الدورة.عدتُ إلى الدار حزينًا .. لمن أشكو شيخ الخفر .. ؟ انتابتنى موجة من تأنيب الضمير . أول مرة منذ ثلاثين سنة وتسع لا أكمل الدورة .. دورة المسحراتى.تناسيت آلامى .. وعصا شيخ الخفر . لن أكف عن إيقاظ الناس حتى أموت . الولد محمد قال كل واحد يجب أن يكون مسحراتى نفسه . الليل طويل .. ومظلم . السماء توشك أن تمطر والناس نيام . كل واحد هدَّه تعب البحث عن لقمة العيش .. وتداخل فى مرتبة زوجته . الناس نيام .. الطريق فيه

بعض الوحل . الناس نائمون . . لكنّى سأظل أدق على البازة . . وأغنى للناس . . أنادى عليهم حتى يقوموا . . حتى يستيقظوا . . حتى يأتى الفجر .

أبريل ١٩٨١

الفهـرس

صفحة